مسلمو مابيلا على ساحل مليبار ودورهم في التصدي للبرتغاليين

دكتور/ إبراهيم محمد حامد سليمان
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
كلية دار العلوم – جامعة المنيا

ملخص البحث:

تأتي هذه الدراسة لتلقي الضوء على مسلمي مابيلا الذين نشأوا على ساحل ومدن مليبار منذ وصول الإسلام في وقت مبكر إلى هذا الساحل. وقد ارتبط ظهور هذا الجيل برحلات التجار العرب المسلمين باتجاه مليبار، وإقامتهم لفترات طويلة في تلك البلاد، ثم تزاوجهم مع النساء المحليات الوثنيات، وهو ما مهد لظهور "جيل المولدين الجديد" الذي سمي بـــــ "مابيلا". وقد أخذت جماعة مابيلا تنمو رويدا رويدا، حتى أصبح أفرادها منشرين في غالبية مدن مليبار. وبسيطرتهم على النشاط التجاري الساحلي تمكنوا من أن يتبوؤوا مكانة رفيعة داخل هذا المجتمع، وكان مما عزز من هذه الوضعية حسن المعاملة التي وجدها هؤلاء المسلمون من قبل حكام الساحل- وفي مقدمتهم زامورين كاليكوت- رغم الاختلافات العقدية والعرقية ما بين الجانبين.

وقد ظهرت أهمية مسلمي مابيلا أثناء الصراع الذي نشأ ما بين حاكم كاليكوت وحلفائه المسلمين من ناحية والبرتغاليين من ناحية أخرى؛ فقد لعبوا دورا مهما في قيادة أسطول الزامورين، ودخلوا في سلسلة من المعارك مع الأسطول البرتغالي القوي، استطاعوا خلالها أن يلحقوا بهم وبتجارتهم كثيرا من الخسائر، لكن في الوقت نفسه تعرض أسطول مابيلا لعدد من الانكسارات. وقد بلغت ذروة نجاح مسلمي مليبار ضد البرتغاليين في معركة شاليات التي حققوا فيها نصرا كبيرا، ونجحوا في طرد البرتغاليين من المدينة، وحرمانهم من أمل تشييد مملكة على ساحل مليبار.

الكلمات الرئيسة:

مابيلا – مليبار – التجار المسلمون – البرتغاليون – الهند

Abstract:

This study comes to shed light on the Mappila Muslims who grew up on the coast of Malabar since the early arrival of Islam to this coast. The emergence of this generation was linked to the journeys of Arab Muslim merchants towards Malabar, and their long stay in those countries, and then their intermarriage with the local pagan women, which paved the way for the emergence of the "new born generation" called Mappila. The Mappila community grew slowly, until its members were spread in most of the cities of Malabar. By controlling the coastal commercial activity, they were able to occupy a high position within this society, and this situation was reinforced by the good treatment that these Muslims found by the rulers of the coast- led by the Zamorin of Calicut- despite the creed and ethnic differences between the two sides.

The importance of the Mappila Muslims appeared during the conflict that arose between the ruler of Calicut and his Muslim allies on the one hand, and the Portuguese on the other hand; They played an important role in leading the Zamorin fleet, and entered into a series of battles with the powerful Portuguese fleet, during which they were able to inflict many losses on them and their trade, but at the same time the Mappila fleet suffered a number of setbacks. The peak of the success of the Muslims of Malabar against the Portuguese was in the Battle of Chalyani, in which they achieved a great victory, and succeeded in expelling the Portuguese from the city, and depriving them of the hope of establishing a kingdom on the coast of Malabar.

Keywords:

Mappila – Malabar – Muslim Merchants – Portuguese - India

المقدمة

تقع مليبار على الساحل الجنوبي الغربي لبلاد الهند، وهي تشكل الجزء الشمالي من ولاية كيرالا الحالية. وتشتمل مليبار على العديد من المدن الساحلية، مثل كاليكوت وكوتشي وكويلون وكننور، التي كانت منذ القدم تمثل أهم المراكز التجارية في المحيط الهندي، لذلك فإنها قد نجحت في جذب العديد من الجاليات التجارية على مر العصور. ويعد العرب من أهم تلك الأمم التي ارتبطت بصلات تجارية وثيقة مع ساحل مليبار منذ فترة تاريخية مبكرة، تعود حتى إلى ما قبل ظهور الدعوة الإسلامية. وقد كان للعامل الجغرافي أثر كبير في هذا التواصل؛ فقرب بلاد العرب من ساحل مليبار- إضافة إلى مهارة العرب في مجال الملاحة والتجارة- سهل وعزز من عملية وصول واستيطان الجالية العربية على هذا الساحل. ومع ظهور الإسلام شهدت تلك العلاقات زخما كبيرا، فتوافد المسلمون إلى تلك المناطق حاملين معهم بضائعهم التجارية ودينهم الجديد، الذي عملوا على نشره بين السكان الوثنيين بجد ونشاط. وقد وجدت دعوتهم صدى ونجاحا كبيرا بين سكان مليبار، خاصة العوام والفلاحين- نظرا للمبادئ السامية التي وجدوها في هذا الدين، بعيدا عن "الطبقية المقيتة" التي كانوا يعانون منها في مجتمعهم الوثني.

وكان التجار العرب المسلمون يقيمون لفترات زمنية طويلة في تلك البلاد لإنهاء عملياتهم التجارية، وهو ما جعلهم يدخلون في مصاهرات مع السكان الهنود الوثنيين، وقد ساهمت تلك العلاقات الزوجية في ظهور جيل جديد يحمل دم الآباء العرب ودم الأمهات الهنود، وقد سمي هؤلاء المولدون بـــــ "مابيلا"، الذين أخذ عددهم يتزايد مع مرور الزمن حتى أصبحوا يمثلون قوة ونفوذا كبيرا على الساحل خلال القرن ٩هـــــ/١٥، قبيل وصول الأساطيل البرتغالية بقيادة فاسكو دي جاما للسواحل الهندية. وقد ظهرت أهمية رجال مابيلا أثناء الصراع الذي نشأ ما بين حاكم كاليكوت وحلفائه المسلمين من ناحية والبرتغاليين من ناحية أخرى؛ فقد لعبوا دورا مهما في قيادة الأسطول البحري لمليبار، ودخل أسطولهم الصغير في سلسلة من الصراعات والحروب مع الأساطيل البرتغالية في مياه المحيط الهندي، حققوا فيها بعض المكاسب، لكنهم تكبدوا كذلك- في عديد المرات- كثيرا من الخسائر.

انطلاقا مما سبق، تأتي هذه الدراسة لتلقي الضوء على مسلمي مابيلا داخل مجتمع مليبار، وذلك منذ نشأتهم- مع وصول الإسلام للساحل- وحتى عام

٩٧٩هـــــــ/١٥٧١م، الذي يؤرخ لمعركة شاليات المهمة بين زامورين كاليكوت ومسلمي مابيلا ضد البرتغاليين، وهي الموقعة التي أنهت تماما على آمال البرتغاليين في تشييد مملكة لهم على ساحل مليبار. وسيتم عرض وبحث هذا الموضوع من خلال الإجابة على عدد من التساؤلات أهمها:

- ما هو المقصود بمصطلح "مابيلا"؟ وما هو الأصل الذي تعود إليه هذه الكلمة؟
- متى ظهر الإسلام على ساحل مليبار؟ وما هي عوامل انتشاره بين السكان الهنود الوثنيين؟ وكيف ظهر الجيل الجديد من مسلمي مابيلا؟ وما هو الدور الذي لعبه زامورين كاليكوت في دعم المسلمين ونمو وانتشار مابيلا؟
- في أي مدن الساحل تركز وجود مسلمي مابيلا؟ وما هي أهمية تلك المدن؟
- ما هي وضعية مسلمي مابيلا داخل مجتمع مليبار؟ وكيف كانت العلاقة التي ربطت بينهم وبين السكان المحليين الوثنيين؟
- ما هي أهم الأعمال والحرف التي مارسها مسلمو مابيلا؟
- هل أنتج مسلمو مليبار ثقافة خاصة بهم؟ وما هي أهم أنواع ومميزات تلك الثقافة؟
- ما هي طبيعة العلاقات التي ربطت بداية بين مسلمي مابيلا والبرتغاليين؟ وما هي أسباب العداء الذي نشأ ما بين الطرفين؟ ثم ما هو طبيعة الدور الذي لعبه مسلمو مليبار لمناصرة زامورين كاليكوت ضد هؤلاء الأوربيين؟ وأخيرا ما هي النتائج التي ترتبت على الصراع ما بين الطرفين؟

من خلال الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها من الأسئلة الأخرى تدور فكرة وإشكالية هذا البحث. ثم تنتهي الدراسة بذكر خاتمة تشتمل على أهم النتائج التي توصل إليها البحث، ثم ثبت بأهم مصادر ومراجع الدراسة. والله أسال التوفيق والسداد.

١. التعريف بمصطلح "مابيلا"

مابيلا هي كلمة يعرف بها مسلمو مليبار، على الساحل الجنوبي الغربي لبلاد الهند. وقد تم استخدام المصطلح بداية للإشارة للمسلمين والمسيحيين، ولكن بادئين بجوناكا أو تشوناكا فيما يخص المسلمين Jonaka mappilas، بينما يضعون كلمة نصراني قبل كلمة مابيلا لوصف المسيحيين[١] nazrani mappilas، وإن كان اسم مابيلا أصبح لاحقا يطلق على المسلمين حصريا، ويكتب هذا المصطلح بأشكال مختلفة مثل Mappila وMappilla وMoplah. لكن لا يزال هناك اختلاف وجدل حول أصل ومعنى هذه الكلمة؛ فهناك رأي يرجح أن تكون كلمة "مابيلا" هي مزيج من كلمتين درافيديتين Dravidian (نوع من اللغات التي كان يتحدث بها قديما على الساحل الجنوبي للهند)؛ مها maha تعني عظيم، وبيلا pilla تعني طفل، وهو لقب تشريف يعني "الطفل العظيم"، وفيه إشارة إلى الاحترام والعلاقة الحميمة، وقد تم استخدام هذا اللقب الشرفي بين الهنود الناير Nayr النبلاء. علما بأن هذا المصطلح الشرفي كان يستخدم من قبل سكان مليبار مع الزائرين والمهاجرين القادمين إلى بلادهم للترحيب بهم[٢].

كما أن هناك رأيا آخر يذهب للقول إن هذا المصطلح مأخوذ من كلمة ما Ma التي تعني الأم، وكلمة Pillai التي تعني الطفل، وعلى هذا يكون المعنى "نسل أو أبناء الأمهات"، وقد تم إطلاق هذا المصطلح على الأطفال الذين ولدوا من نساء محليات (هنود) متزوجات من أجانب عرب، وكذلك من غير العرب. ومن التفاسير الأخرى التي ذكرت لهذا المصطلح، هو أن كلمة "مابيلا" تعني في أصلها "صهر" أو "عريس"، وهذا الأمر يتناسب مع الاستخدام السائد لمصطلح "العريس" لدى التاميل للدلالة على الزوج. وقد كان من المعتاد في شمال مليبار أن يقيم الأزواج- في أول الأمر- في بيوت نسائهم "صغيرات السن"، وكان يطلق عليهم لقب "عرسان". وبناء على ذلك فإن

١يرى مسيحيو مليبار أن بداية ظهور المسيحية والكنيسة على هذا الساحل إنما يعود إلى الأعمال والجهود التي قام بها القديس توما (يسمى لدى البعض برسول الهنــود)، ورغم عدم وجود أدلة تاريخية على هذا الأمر إلا أنه أصبح تقليدا راسخا في مشاعر مسيحيي مليبار ولدى الهنود بصفة عامة. كما أن هناك بعض الأدلة التاريخية واللغوية التي تدعم الاقتراح القائل بإن الجماعات المسيحية الأولى في مليبار كانوا تجارا أجانب استقروا بشكل دائم على هذا الساحل، ثم بدأ عددهم في الزيادة نتيجة تزاوجهم مــع النساء المحليات، بالإضافة إلى تعميد عدد من العبيد، وكذلك بفضل أعمال التبشير. وعلى هذا يبدو هناك تشابه كبير بين ظهور ونشأة المجتمعين الإسلامي والمسيحي (جوناكا مابيلا ونصراني مابيلا) في مليبار. أنظر:

R. Miller, Mappila Muslims of Kerala, a Study in Islamic Trends, Published in association with the Christian Institute for the Study of Religion and Society, Bangalore, ١٩٧٦, p. ٢٥.

٢ William Logan, Malabar Manual, Vol. ١, Madras, ١٨٨٧, p. ١٩١; R. Miller, Op. cit., p. ٣٠-٣١; R. Miller, Mappila Muslim Culture (How a Historic Muslim Community in India has blended Tradition and Modernity), Published by State University of New York Press, ٢٠١٥, p. ٢٦.

مصطلح مابيلا يشير إلى الأزواج صغار السن بوصفهم ضيوف شرف وغرباء لفترة محددة، ثم تم استخدام المصطلح كلقب شرفي للأجانب الذين تزوجوا من عائلات محلية (هندية) وأصبحوا يقيمون في تلك البلاد لفترة من الزمن. وحتى الوقت الحديث لا تزال كلمة مابيلا مستخدمة في مجتمع كيرالا– أو مليبار– للإشارة إلى "العريس". فضلا عن ذلك فإن هناك بعض الآراء التي ترجع هذا الاسم إلى اشتقاق وأصل عربي؛ وأن أصله من "محفل" بمعنى مكان التجمع أو مكان الاجتماع، وأنه يعتقد أن مسلمي مابيلا استخدموا هذا المصطلح للإشارة إلى تجمعاتهم، لذلك فإن عموم سكان مليبار الأصليين أطلقوا هذا الاسم عليهم شخصيا. وهناك أخيرا من يعتقد أن المصطلح هو تحريف للكلمة العربية "مفلح" من الفعل "فلح" بمعنى حرث الأرض، وهي كلمة تحمل معاني الازدهار والظفر والسيادة، وهي تشير إلى تجار الجاليات العربية الإسلامية، الذين نجحوا في تحقيق تفوقهم على الساحل. وفي المجمل فإن المقصود بهذا المصطلح هم الأبناء المنحدرون من آباء أجانب (وفي مقدمتهم التجار العرب) وأمهات من السكان الأصليين نتيجة لعلاقات زوجية، أي نستطيع أن نطلق عليهم جيل "المولدين" [١].

٢. انتشار الإسلام على ساحل مليبار وظهور جيل "مسلمي مابيلا"

مصطلح مليبار أو مالابار ربما كان كلمة عربية صاغها التجار والملاحون العرب لوصف الشريط الضيق من الأرض على الساحل الجنوبي الغربي للهند، الذي كانوا دائما ما يترددون عليه للتجارة. ومن المحتمل كذلك أن تكون الكلمة مستمدة من المصطلح الوارد في الدرافيديانية Malayalam؛ فمقطع مالا (تعني تل أو جبل) وكلمة بار عربية (تعني اليابسة أو البر)، أو ربما تكون فارسية (وتعني بلدا أو أرضا). وهكذا أصبحت تُعرف باسم أرض التلال أو الجبال. ولا شك أن تلك المصطلحات تشير إلى الخصائص العامة لطبوغرافيا المنطقة، التي تزخر بالتلال المتجاورة والوديان المنبسطة [٢].

ويعد موقع بلاد مليبار بوصفها مستوع ومركز للبضائع والأنشطة التجارية بين الشرق والغرب على سواحل المحيط الهندي عاملا رئيسا وحاسما في المكانة

١ R. Miller, Mappila Muslims of Kerala, p. ٣١-٣٢; K. P. Padmanabha Menon, History of Kerala, Edited by: T. K. Krishan Menon, Vol. ٢, Asian Educational Services, New Delhi, ٢٠١٣, p. ٥٣٦.

٢ R. Miller, Op. cit., p. ٤; K. M. Mohamed, "Arab Relations with Malabar Coast from ٩th to ١٦th Centuries", in Proceeding of the Indian History Congress, Vol. ٦٠, (١٩٩٩), Published by: Indian History Congress, p. ٢٢٦; O. p. Salahudheen, Anti-European Struggle by the Mappilas of Malabar, ١٤٩٨-١٩٢١, Thesis submitted for the Award of the Degree of Doctor of Philosophy in History, Center of Advanced Study, Aligarh Muslim University, India, ٢٠٠٦, p. ٢٦٨.

البارزة التي احتلتها في عالم العصور الوسطى. والواقع إن الإشارات المتكررة في مصادر تلك الحقبة الزمنية- العربية والغربية على السواء- عن تجارة مليبار وحجم العمليات التجارية التي كانت تتم على هذا الساحل لهو أمر يؤكد على هذه الأهمية. وقد ظهر مصطلح مليبار أولا بالشكل "منيبار" عند الجغرافي الإدريسي في منتصف القرن ٦هـــــ/١٢م [١]، أما ابن بطوطة في رحلته فذكرها مليبار (بضم الميم) [٢]، وكذلك وردت عند ياقوت الحموي باسم مليبار (بفتح الميم) [٣]، كما وردت صيغ أخرى مختلفة مشابهة في روايات تاريخية أخرى.

أما عن حدود هذه البلاد، فيقول بربوزا إنه بعد الانتهاء من مملكة نارسينجا Narsinga، وبمحاذاة ساحل البحر، تبدأ مملكة مليبار، وهي مقاطعة كبيرة تشمل على العديد من البلدان، وتبدأ من إقليم سنبولا Cinbola شمالا- بالقرب من جبل دلي Deli- وينتهي عند رأس كومورين Conmery (Comorin) جنوبا، وهي منطقة تمتد على الساحل باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي لمسافة تصل إلى ٧٠ فرسخا (أي تقريبا من ٢٨٠ إلى ٤٢٠ كم) [٤]. وبحسب رواية ابن بطوطة، فإن حدود مليبار تمتد من سندابور (جوا) إلى كولم (كويلون)، "والطريق في جميعها بين ظلال الأشجار، في كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم أو كافر، وعند كل بيت منها بئر يشرب منه ... وهذا الطريق الذي ذكرنا انه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوق دون عمارة" [٥]. ويتحدث كذلك ابن بطوطة عن انتشار الأمن في ربوع هذه البلاد، ذاكرا انه لم ير في حياته طريقا أكثر أمنا من هذا الساحل، ولا يستطيع أحد أن يعتدي على أملاك غيره؛ "فهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة، فإذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه" [٦].

من ناحية أخرى، فإن موقع مليبار كان مهما في تطور مجتمع مابيلا وبقية سكان هذا الساحل؛ "فالعزلة النسبية- عن بقية بلاد الهند- التي تمتعت بها هذه المنطقة منذ فجر التاريخ منحها حصانة من الاضطرابات السياسية التي هزت وعصفت بشمال

١الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص ١٨٦.

٢رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، (حققه وقدم له) عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧م، ٣٥/٤.

٣معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ١٩٦/٥.

٤ Barbosa, A Description of the coasts of East Africa and Malabar in the beginning of the sixteenth century, Notes and a preface by Baron Henry Stanley, London, ١٨٦٦, p. ١٤٦.

٥ الرحلة، ٣٦/٤.

٦ نفسه.

الهند". كما أن تلك العزلة لمجتمع مسلمي مابيلا عن مناطق الهيمنة الإسلامية والثقافة الأردية في بقية بلاد الهند وسمت هذا المجتمع بصفات خاصة مميزة، "وكانت عاملا مهما في تحقيق تطور فريد للغة وثقافة مابيلا" [١]. هذا فضلا عن أن انفتاح مليبار على ساحل البحر المحيط، وقدوم جماعات مختلفة منذ القدم إلى هذا الساحل أدى إلى امتزاج خليط من الثقافات والتأثيرات الدينية واللغوية؛ "فقد كان البحر هو العامل الدائم والحاسم في تاريخ مليبار، وعن طريقه أتت ديانات مختلفة مثل اليهودية والمسيحية والإسلام". ورغم أنه يمكننا إرجاع تاريخ الصلات التجارية بين ساحل مليبار وبلدان ومدن غرب آسيا إلى العصور الفينيقية، إلا أن العنصر العربي مثل أهمية كبيرة في تاريخ هذه المنطقة، بحيث إنه لا يمكن مقارنته- في اتصاله المباشر والمستمر- بأي عنصر أو شعب آخر، وهي حقيقة ذات أهمية حاسمة في نشأة وتطور مجتمع مابيلا. ومع ظهور الإسلام اكتسب هذا الوجود بعدا آخر؛ فقد نشأت العديد من المستوطنات العربية والفارسية بصفة خاصة في إقليم مليبار وجزيرة سيلان، كما أن التجار المسلمين- خاصة من مسقط- كثيرا ما كانوا يترددون بسفنهم وبضائعهم على هذا الساحل [٢].

وفيما يتعلق ببداية ظهور الإسلام على ساحل مليبار، ومن ثم نشأة مجتمع مابيلا، فلدينا رواية شهيرة- تدور حولها كثير من النقاشات- تتحدث عن تحول ملك مليبار- الذي يدعى السامري (تشيرامان بيرومال) والذي تلقب لاحقا بعبد الرحمن- على عهد النبي ﷺ إلى الإسلام، وذلك على يد جماعة من المسلمين- على الأرجح كانوا تجارا- كانوا يمرون بمليبار وهم في طريقهم إلى جزيرة سيلان لزيارة "آثار قدم آدم عليه السلام"، ثم قراره بالذهاب سرا إلى مكة لمقابلة الرسول ﷺ، وقيامه بتقسيم مملكته بين ورثته قبل مغادرته البلاد "حتى لا يتجاوز أحد عن حده"، ثم موته أثناء هذه الرحلة. وقد كان للتجار المسلمين الذين رافقوه في رحلة عودته- مثل شرف بن مالك وأخوه مالك بن دينار [٣] وابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك وغيرهم- الفضل الكبير في انتشار الإسلام في مدن مليبار وعمارة المساجد. وقد وردت هذه القصة- مع اختلافات بسيطة في أحداثها- في العديد من المصادر والروايات العربية (كما هو الحال عند زين

---

١ R. Miller, Op. cit., p. ٢.

٢زين الدين المليباري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، (قدم له وحققه) محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٥م، ص ٣٥-٣٧؛ R. Miller, Op. cit., p. ٢-٣, ٤٠-٤٢; K. M. Mohamed, Op. cit., p. ٢٢٧-٢٢٨.

٣يرى البعض أن الاسم الصحيح هو دينار بن مالك وليس كما ورد عند زين الدين المليباري مالك بن دينار. أنظر: ابن بطوطة، المصدر السابق، ٤١/٤ (هامش ١٠٣).

الدين المليباري) [1] والغربية (يعد بربوزا من أوائل من أشاروا إلى تلك الحادثة) [2] والهندية كذلك [3].

وعلى الرغم من بعض الاختلافات التي وردت في أحداث هذه القصة أو في تحديد إطارها الزمني ما بين هذه المصادر المختلفة، فإنه لا يمكن تجاهل التقاليد والروايات المؤيدة لها، التي كانت سائدة تقريبا ما بين معظم مجتمعات مليبار خلال القرنين ٩هـــــ/١٥م و١٠هـــــ/١٦م؛ من ذلك أن الزامورين [4] حاكم كاليكوت عند تبوأه للسلطة جرت العادة أن يقوم بارتداء الزي والملابس الإسلامية على يد بعض المسلمين، وكان يعتقد أنه خليفة السامري، ويحكم من قبله إلى حين عودته من جزيرة العرب. كما أن حاكم تراونكور عند تتويجه وإمساكه بالسيف يقول: "إن هذا كله عنده إلى أن يرجع عمه الذي غادر إلى مكة". من ناحية أخرى، لا يوجد سبب مقنع لرفض هذه الرواية خاصة وأنها لم ترد فحسب في سجلات وأخبار المسلمين، وإنما تم الإشارة إليها كذلك في كتب التاريخ الهندوسي، "التي لا يجب أن نتوقع أن تقوم بتلفيق مثل هذه القصة، التي لا تعمل بأي حال من الأحوال على تعزيز مكانة ومصالح السكان الهندوس" [5].

على أية حال، ورغم الاختلاف في مدى حقيقة قصة هذا الملك ولقائه بالنبي ﷺ، فإن العديد من الأدلة تؤكد وصول الإسلام إلى مليبار بعد وقت قصير من ظهور الدعوة الإسلامية بمكة [6]. كما أن العملات الذهبية العربية المكتشفة في هذه المنطقة- في بونجار Poonjar على سبيل المثال، والتي تم جلبها من قبل التجار المسلمين المقيمين على هذا الساحل- أثبتت بما لا يدع مجالا للشك أن الإسلام قد وصل إلى هناك في الوقت نفسه الذي كان يتم فيه نشر الدعوة في شبه الجزيرة العربية [7].

مهما يكن من أمر، فإن التدفق المستمر للتجار المسلمين على ساحل مليبار جعلهم يسيطرون على تجارة التوابل والعاج والأحجار الكريمة وغيرها من البضائع

١تحفة المجاهدين، ص ٢٢٣-٢٢٩.

٢ Barbosa, Op. cit., p. ١٠٢-١٠٣.

٣في الحقيقة يتفق بشكل عام التقليد والرواية الهندوسية المحلية الواردة في كيرالولباثي keralolpathi (أصل كيرالا) أيضًا مع الروايات الإسلامية في تحول تشيرامان بيرومال (بيروماض) Cheraman Perumal (آخر حكام بيرومال) إلى الإسلام، ويبقى الفرق الرئيس هو أنه وفقا لكيرالولباثي فإن تشيرامان قد قام بتقسيم إمبراطوريته بين أقاربه ومن يعولهم قبل رحيله إلى مكة. أنظر: O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ١٩

٤عرف حكام مدينة قاليقوط بلقب Zamorin، وهذه الكلمة مأخوذة من Zamoudriya râjah والتي تعني ملك الساحل أو ملك المحيط، وذلك نظرا للقوة والنفوذ التي كان يتمتع بها هؤلاء الحكام. أنظر:

A. Kammerer, La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'antiquité, IFAO, Le Caire, ١٩٢٨-١٩٥٢, ٢/ ٢٢.

٥زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٧٩، ٢٣٠-٢٣١؛

O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٢٠; K. M. Mohamed, Op. cit., p. ٢٣٠.

٦ R. Miller, Op. cit., p. ٥١.

٧ O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٢٢.

الهندية، التي بفضلها أصبحوا الوسيط التجاري الرئيس ما بين الهند وأوروبا. والواقع أن هناك علاقات ودية للغاية قد نشأت بين هؤلاء التجار المسلمين والحكام الهندوس، الذين قدموا لهم حمايتهم ورعايتهم نظرا للنشاط التجاري المتزايد وما ترتب على ذلك من ازدهار لبلادهم، كما كان من نتيجة هذه الهجرات والرحلات المتوالية للتجار المسلمين، ورغبتهم في الإقامة والاستقرار لفترات طويلة في تلك المنطقة، أن تشكل مجتمع ساحلي جديد تزاوج واختلط فيه سكان البلاد الهندوس بالمسلمين الوافدين، وهو الأمر الذي أنتج في نهاية الأمر جيلا جديدا من المولدين [١]. ويؤكد ميلر أن ظروف هذا النمو كانت مثالية؛ "حيث تفاعل العاملان المهمان المصالح الاقتصادية المتبادلة– ما بين التجار المسلمين الوافدين وحكام ساحل مليبار– والتسامح الديني بطريقة متوازنة وإيجابية"، وهو الأمر الذي أدى إلى ازدياد عدد العرب في الموانئ التجارية، وكذلك عدد الذين تزوجوا واستقروا في هذه الأماكن، بشكل مطرد على مر القرون، بحيث إن السكان الهنود الأصليين (الوثنيين) لم يشعروا بتهديد إزاء هذا الأمر [٢]. ومن أهم الفئات الاجتماعية التي ظهرت على الساحل الهندي الجنوبي نتيجة هذا الاستيطان العربي الإسلامي في تلك المناطق: نوايات Nawayats في كونكان Konkan، ولاباي Labbais في مناطق التاميل، لكن تظل المجموعة الأكثر قوة وشهرة من بينهم مابيلا التي انتشرت على ساحل المليبار [٣].

والواقع كان هناك اختلاف في طبيعة اتصالات العرب والمسلمين مع شمال وجنوب الهند، ففي حين أن هذا الاتصال في إقليم السند نشأ عسكريا بفتوحات محمد بن القاسم الثقفي عام ٩٢هـــــ/٧١١م [٤]، نجد أنه في الجنوب تشكلت وتأطرت تلك العلاقات بشكل أساسي من خلال التجارة، وكان الود والصداقة هو أساس تلك العلاقة وليس العداء السياسي [٥]. كما أن هناك إشارات إلى أن مستعمرات وجاليات المسلمين

١زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٤٢-٢٤٣؛ توماس ارنولد، الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، (تحقيق) حسن إبراهيم حسن (وآخرون)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١م، ٢٩٦؛

T. Arnold, The Preaching of Islam, Constable and Company LTD, London, ١٩١٣, p. ١٩٩-٢٠٠; William Logan, Op. cit., p. ٢٣٠; S. Maqbool Ahmad, "Arabic source Material on Indo-Arab Relations", in Medieval India Quarterly, Vol III, N. ١ and ٢, ١٩٥٧, p. ٨٣; K. P. Padmanabha Menon, Op. cit., p. ٥٣٦.

٢ R. Miller, Op. cit., p. ٥٢.

٣ O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٥٤.

٤هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عقيل الثقفي (٦٢ – نحو ٩٨هـــ/٦٨١ – نحو ٧١٧م)، فاتح السند وواليها ومن كبار القادة في زمانه. كان أبوه والي البصرة للحجاج، ثم ولى الحجاج محمدا هذا ثغر السند وذلك في أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك؛ فسار بجيوشه إلى مكران، وفتح قنزبور وارمائيل والديبل حتى وصل إلى مهران، فعبره وقاتل داهر ملك السند وقضى عليه، واستمر في فتوحاته حتى وصل إلى الملتان. وهناك وصلته الأخبار بوفاة الحجاج ثم الخليفة الوليد، وخلفه في الحكم سليمان بن عبد الملك، الذي كان كارها للحجاج وعماله، لذلك فإنه قام بعزل محمد بن القاسم، وأمر بحمله من السند مقيدا إلى واسط وعذب بها. ورغم أن سليمان قد عفي عنه وأطلق سراحه إلا أنه سرعان ما قتل على يد معاوية بن يزيد بن المهلب. أنظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م، ٦/٣٣٣-٣٣٤.

٥ O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ١٥; M. T. Ansari, Islam and Nationalism in India (South Indian Contexts), Routledge, London, ٢٠١٦, p. ٧٤; توماس ارنولد، المرجع السابق، ص ٢٩٨

في جنوب الهند كانت قد نشأت قبل فترة طويلة من استقرار المسلمين في شمال الهند. ولعل مما يعزز هذا الطرح هو القرب المكاني بين جزيرة العرب والساحل الجنوبي للهند، بالإضافة إلى النشاط التجاري الملحوظ للعرب في ذلك الوقت [١]. من ناحية أخرى، يمكننا كذلك ملاحظة أن الإشارات والنصوص التي وردت في مصنفات الجغرافيين والمؤرخين العرب عن الساحل الجنوبي للهند تعد أكثر عددا من تلك المتعلقة بشمال الهند، وهو ما يؤكد على العلاقات الودية التي ربطت العالم العربي آنذاك بجنوب الهند، كما يعكس الاختلافات في مواقف حكام الشمال والجنوب الهندي[٢]. وفي هذا المقام يذكر ميلر "أن الإسلام قد جاء إلى هذه المناطق دون أي مساعدة سياسية من أي نوع، وبقي متجذرا في التربة لعدة قرون، بعيدًا عن الاضطرابات التي رافقت حملات السلطان محمود الغزنوي [٣] للهند، وبعيدا كذلك عن الصراع بين الهلال والصليب في عالم الغرب" [٤].

وهكذا نشأ مابيلا مليبار كمجتمع مسلم مع ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية، وانتشروا على طول هذا الساحل من خلال عملية التواصل والتعايش السلمي والعلاقة الاقتصادية المتينة التي ربطت ما بين العرب وسكان مليبار، هذا بالإضافة إلى الحماس الذي كان عليه التجار العرب لنشر دينهم، فضلا عن التسامح الديني لحكام وأهالي هذا الساحل الوثنيين؛ فلم تكن هناك عقبات تقف في طريق نشر الدين الإسلامي، كما أن أهالي البلاد المتحولين للدين الجديد كانوا يجدون نفس المعاملة والاحترام تماما كالتجار الأجانب، على الرغم من أنهم كانوا ينتمون في الأصل إلى طبقات اجتماعية متدنية داخل المجتمع. وقد حولت كل هذه العوامل مليبار – مع مرور الزمن – إلى دولة يسيطر عليها مابيلا المسلمون، بحيث إنه في كل بلاد الهند لم توجد منطقة ينتشر فيها السكان المسلمون كما كان الحال في مليبار. هذه الوتيرة المتسارعة لانتشار الإسلام على الساحل الغربي للهند جعلت أعداد مابيلا تتزايد بشكل ملحوظ،

---

١ R. Miller, Op. cit., p. ٣٩.

٢ S. Maqbool Ahmad, Op. cit., p. ١٠٧.

٣هو السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي (٣٦١-٤٢١هـــ/٩٧١-١٠٣٠م) فاتح الهند وأحد كبار القادة. امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور، وكانت عاصمته غزنة (ما بين خراسان والهند)، وفيها كانت ولادته ووفاته. وكان وصوله للحكم عقب وفاة والده ناصر الدولة سبكتكين (٣٨٧هـــ)، بعد أن دخل في صراع وحروب مع أخويه إسماعيل ونصر للوصول إلى كرسي السلطنة. وتمكن محمود في النهاية من الظفر والانتصار على أخويه واستولى على الإمارة عام ٣٨٩هـــ. وقد أرسل إليه الخليفة العباسي القادر بالله بخلعة السلطنة. ثم توجه محمود إلى بلاد خراسان واستولى عليها من السامانيين، كما أنه كان دأبه غزو الهند مرة في كل عام؛ فافتتح بلادا شاسعة، واستمر على ذلك إلى أن أصيب بمرض عانى منه مدة سنتين، وكان لا يستطيع أن يضجع على فراشه وإنما كان يتكئ جالسا، وظل على ذلك حتى وافته المنية. وقد عرف السلطان محمود بمحبته للعلم والعلماء، فكان يجالس العلماء ويناظرهم، كما كان هو نفسه فصيحا بليغا ومن أعيان الفقهاء. أنظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ١٧١/٧.

٤ R. Miller, Op. cit., p. ٥١-٥٢.

وذلك بدخول عدد كبير من أبناء الطبقات الدنيا من الهندوس في الإسلام، وهو الأمر الذي كان من الممكن- كما يقول بربوزا- أن يجعل جميع سكان مليبار مسلمين في غضون سنوات قليلة [1].

وهناك إشارة مهمة- في فترة زمنية مبكرة- نجدها عند الجغرافي والرحالة الشهير المسعودي تدل على الأعداد المتزايدة للمسلمين في الهند؛ إذ إنه يذكر أن هناك عشرة آلاف مسلم كانوا يعيشون في بلدة صيمور- الواقعة ما بين كننور ومنجلور- منهم بياسرة وسيرافيون وعمانيون وبصريون وبغداديون، وغيرهم من سائر الأمصار الإسلامية ممن سكن في تلك البلاد، ثم يذكر أن المقصود بالبياسرة هم "من ولدوا من المسلمين بأرض الهند" [2]. ويلاحظ أن هذه الأعداد التي ذكرها المسعودي كانت مع بداية القرن الرابع الهجري- وقت زيارته للهند-، ولا شك أن أعداد المولدين المسلمين (مابيلا) كانت تشهد نموا مطردا خلال القرون اللاحقة، وأنها قد بلغت أوجها مع وصول البرتغاليين للمنطقة مع بدايات القرن العاشر الهجري.

وينبغي الإشارة في هذا السياق إلى أن الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في مليبار في ذلك الوقت قد ساعدت التجار والبحارة العرب القادمين إلى هذه المنطقة على الدخول في مصاهرات مع أهلها؛ حيث لم تكن النساء- خاصة من الطبقات الدنيا- تمانع من الارتباط بزوج أجنبي (كما هو الحال لدى طبقة الناير مثلا)، كما أن مسألة اختلاف الديانة أو العرق لم تكن تسبب عائقا أمام إتمام هذا الارتباط [3]. من ناحية أخرى، يمكن القول إن النظام الاجتماعي الذي كان سائدا في مليبار قد ساعد على انتشار ونمو الدين الإسلامي ما بين السكان؛ فقد كانت بلاد مليبار هي الجزء الأكثر ارستقراطية وتحفظًا في جنوب الهند؛ حيث كان النظام الطبقي ممارسا بشكله الكامل، حتى أن أفراد الطبقة الدنيا من العوام والفلاحين لم يكن مسموحا لهم بالاقتراب من أفراد الطبقة العليا، وكان عليهم الحفاظ على مسافة معينة عند رؤيتهم في الطرقات، ومن يخالف هذا القانون كانت تصل عقوبته إلى حد الموت في كثير من الأحيان [4]. من هنا فقد كان السبيل الوحيد أمام أفراد الطبقة الدنيا للتخلص من تلك "الطبقية المذلة" هو

---

١ Barbosa, Op. cit., p. ١٠٢, ١٠٤; Henri Allan Gleason, Religious communities in the Indias, a regional survey, Published by Author, ١٩٤٦, p.٩١; T. Arnold, Op. cit., p. ٢٠٠, ٢٠٤; R. Miller, Op. cit., p. ٥١; توماس ارنولد، المرجع السابق، ص ٢٩٦

٢مروج الذهب ومعادن الجوهر، شركة القدس للتصدير، القاهرة، ٢٠٠٩م، ٢٤٤/١.

٣ Barbosa, Op. cit., p. ١٣٨; Velayudhan Panikkasseri, Ibn Batuta Kanda India, Kottayam. ١٩٦٥, p.١٩.

٤ Barbosa, Op. cit., p. ١٢٩.

التحول إلى الإسلام، خاصة وأنهم رأوا ولمسوا الأخلاق السامية لهؤلاء المسلمين، الذين لا يفرقون ما بين إنسان وآخر في التعامل [١].

ومن الجدير بالذكر أن تاريخ مسلمي مابيلا من القرن ٥هـ/١١م وحتى القرن ١٠هـ/١٦م ارتبط ارتباطا وثيقا بصعود الزامورين ملوك كاليكوت، الذين تبوؤوا الصدارة بين الحكام على ساحل مليبار خلال هذه الحقبة الزمنية، ورغم أن أملاك ومناطق نفوذ الزامورين كانت تتغير من فترة لأخرى، إلا أنه بحلول القرن ٧هـ/١٣م كانت مملكة هؤلاء الحكام تمتد لتشمل منطقة شاسعة من كننور شمالا إلى كولم (كويلون) جنوبا [٢]. وفي الواقع إن المكانة الكبيرة التي بلغها زامورين كاليكوت كانت مدعومة بعاملين أساسيين: الأول هو حالة السلام والأمن التي شهدها ساحل مليبار؛ فلم تكن هناك أي تدخلات أو أطماع خارجية من قبل القوى المهيمنة في شبه القارة الهندية. والثاني هو تحالف زامورين مع مسلمي مابيلا والتجار العرب، وهذا التحالف كان له فوائد متبادلة للطرفين؛ فقد كان هؤلاء الحكام يشجعون التجارة – التي كانت تمثل المصدر الرئيس في دخلهم– لذلك فإنهم منحوا كثيرا من المميزات والاعفاءات لمن يتوجه إلى ميناء مدينتهم. والواقع أن كاليكوت– مقارنة بالمدن الساحلية الأخرى– حققت في تلك الفترة تفوقا كبيرا في تجارة الفلفل والتوابل الأخرى، مما جعلها أكبر متجر على الساحل الغربي، نتيجة لذلك استقر التجار العرب بأعداد كبيرة في هذه المدينة واستطاعوا أن يفرضوا هيمنتهم ونفوذهم، بل وبدعم من الزامورين تمكن هؤلاء التجار من التغلب على منافسيهم التجاريين، وفي مقدمتهم الصينيون، وبدءوا يهيمنون على أسواق كاليكوت وبقية مدن مليبار.

وفي المقابل، لم يكتف التجار العرب ومابيلا بما حققوه لهذا الحاكم من ثروات وأموال من خلال حركة التجارة الضخمة التي اجتذبوها إلى كاليكوت– "والتي جعلت من ميناء المدينة هو الميناء الأهم والأعظم على الساحل الغربي للهند، كما إنها حملت

---

١ Gaspar Correa, The Three Voyages of Vasco da Gama and his Viceroyality, From the Lendas da India of Gaspar Correa, translated from the Portuguese with notes and an introduction by Hon. Henry Stanley, Printed for the Hakluyt Society, London, ١٨٦٩, p. ١٥٥–١٥٦; Francis Buchanan, A journey from Madras through the countries Mysore, Canara and Malabar, Vol.١, London, ١٨٠٧, p.٣٨٣; زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٤٢–٢٤٣

٢في الواقع قبيل وصول البرتغاليين للساحل الهندي كانت قوة وسلطة زامورين كاليكوت في ازدياد مستمر؛ بحيث إنهم كانوا يعملون على نشأة وحدة واتحاد ما بين مدن ساحل مليبار، تكون السلطة والزعامة فيها للزامورين. لكن يبدو أن هذه الإجراءات والسطوة التي كان يمارسها هذا الحاكم قد أدت إلى إذكاء نار الغيرة والنزاعات ما بينه وبين بقية حكام الساحل؛ وقد ظهر هذا الأمر جليا بعد وصول البرتغاليين للمنطقة؛ فقد سارع راجا كشي وكننور– في البدايات– إلى الدخول في صداقة مع هؤلاء الأوربيين من أجل الاستعانة بهم لمواجهة الزامورين. أنظر:

K.M. Panikkar, Malabar and the Portuguese (Being a History of the Relations of the Portuguese with Malabar from ١٥٠٠ to ١٦٦٣), D. B. Taraporevala Sons and Co., Bombay, ١٩٢٩, p. ٢٥, ٣٨.

اسم وشهرة زامورين لأوروبا"– وإنما كذلك دعموهم بشكل مباشر أثناء الصراعات والمناوشات التي كانت تقع بينهم وبين الحكام المجاورين لهم، فأصبحوا يمثلون قوة عسكرية مهمة– إلى جانب الجنود الناير– في تحقيق التطلعات السياسية للزامورين [١]. ويذكر لنا بربوزا ما يدل على العناية الكبيرة التي كان يوليها الزامورين للتجار المسلمين؛ فقد أعطى الملك كل واحد من هؤلاء التجار ناير لحراسته وخدمته، بالإضافة إلى كاتب شيتي Chety ليساعده في أعمال المحاسبة، والعناية بممتلكاته، والقيام بدور الوسيط في تجارته. وفي المقابل كان يتكفل التاجر المسلم في مقابل تلك الخدمات بدفع بعض المال لهؤلاء الأشخاص الثلاثة، الذين كانوا يقومون بعملهم على أكمل وجه [٢].

من جانب آخر، يمكننا القول إن الزامورين كانت لهم مساهمة فاعلة في نشر الإسلام على ساحل مليبار؛ فقد ألزموا كل أسرة من أسر الصيادين (الوثنيين) الذين يعملون في نطاق مملكتهم بتحويل واحد أو أكثر من الأعضاء الذكور لهذه الأسرة إلى الإسلام، وتنشئته على تعاليم هذا الدين. بل وهناك بعض التقارير التي تشير إلى أن عملية "الأسلمة" لم تقتصر على الصيادين فحسب، وإنما شملت كذلك بعض فئات الطبقات الدنيا الأخرى. والواقع أن الهدف الحقيقي وراء قيام حكام كاليكوت بهذا الأمر يعود إلى رغبتهم في الحصول على البحارة اللازمين لإدارة سفنهم الحربية، ورعاية تجارتهم البحرية؛ إذ إنه خلال هذه الفترة كان ممنوعا في المعتقد والثقافة الهندوسية السماح للرجال بركوب البحر والانخراط في التجارة البحرية، لذلك فقد تركوا هذه "المهن المبتذلة" إما للطبقات الدنيا أو للأجانب. ومن هنا وجد الزامورين ضالتهم في هؤلاء الرجال المتحولين للإسلام، الذين أصبح يطلق عليهم "الملاحون"، والذين أصبحوا يشكلون جزءا مهما في نسيج مجتمع مابيلا [٣]. ويؤكد جاسبار كوريا أن التحول للإسلام قد اقتصر على أبناء الطبقات الدنيا، الذين وجدوا في هذا الدين الجديد مخرجا لهم من الأحوال والظروف الصعبة التي كانوا يعيشونها؛ فقد كان المسلمون– رفقاؤهم في الدين الجديد– يمنحونهم الطعام والملابس ويحسنون معاملتهم، "كما أنهم أصبحوا يستطيعون التحرك والذهاب أينما أرادوا". أما بالنسبة للناير Nairs، وهم طبقة

١ Gaspar Correa, Op. cit., p. ١٥٤-١٥٥; R. Miller, Op. cit., p. ٥٣-٥٥; K.M. Panikkar, Op. cit., p. ٢٣; K. M. Mohamed, Op. cit., p. ٢٢٨; K. P. Padmanabha Menon, Op. cit., p. ٥٣٧.

٢ Barbosa, Op. cit., p. ١٤٨.

٣ R. Miller, Op. cit., p. ٥٥; T. Arnold, Op. cit., p. ٢٠١; O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٢٧; M. T. Ansari, Op. cit., p. ٧٨.

شوقي عبد القوي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٥١، يوليو ١٩٩٠م، ص ٥١؛ توماس ارنولد، المرجع السابق، ص ٢٩٨.

النبلاء الارستقراطية داخل المجتمع، الذين كانوا لا يختلطون أو يتزاوجون مع غيرهم، فقد ظلوا بعيدين عن الدين الإسلامي ولم يفكروا في اعتناقه [١]. كما يذكر زين الدين أن هؤلاء الوثنيين الضعفاء كانوا يكتسبون مكانة كبيرة داخل المجتمع بمجرد دخولهم في الإسلام، وأن طبقة الناير، التي كانت سابقا تقوم باضطهادهم وتسيئ معاملتهم، أصبحت تعاملهم تماما كمعاملة كبار التجار المسلمين، أصحاب النفوذ والمكانة الكبيرة في كاليكوت [٢].

٣. أهم المدن المليبارية التي تركز فيها مسلمو مابيلا

يشير بربوزا– صاحب الخبرة الكبيرة بمنطقة مليبار التي قضى فيها قرابة ستة عشر عاما من ١٥٠٠ وحتى ١٥١٦م– إلى أنه في كل بلاد المليبار كان يوجد عدد كبير من السكان المسلمين المحليين، الذين يتشابهون مع السكان الوثنيين في لونهم (شكلهم) ولغتهم، ويطلق عليهم اسم Moors Mapulers (مسلمو مابيلا)، أما بالنسبة للمسلمين الوافدين إلى مدن مليبار– خاصة في كاليكوت– من مناطق خارجية– مثل العرب والفرس والكجراتيين والخراسانيين– فإن هذا المؤرخ يسميهم "بارديسي" pardesy، وهم الذين كانوا يمثلون طبقة كبار التجار، ويمتلكون سفنا عظيمة تبحر إلى كل السواحل والبلاد، حاملة على متنها شتى أنواع السلع والبضائع [٣].

ونظرا لروايته المفصلة عن ساحل مليبار وسكانه، بالإضافة إلى خبرته الكبيرة عن هذه المنطقة بفضل مكوثه بها لفترة طويلة، فإن الحديث عن أهم المدن التي كان يعيش فيها مسلمو مابيلا سيرتكز بالأساس على رواية المؤرخ البرتغالي دوارت بربوزا [٤]، الذي يذكر أن أول مدينة تقع في حدود مملكة كننور المليبارية– بعد مغادرة حدود مملكة نارسينجا– هي كوتكولام Cotcoulam، التي على ساحلها البحري ترتفع أحد القلاع التي يقيم بها ابن أخت ملك كننور مع بعض الجنود، وذلك لحماية وتأمين الحدود الشمالية لمملكته. ويوجد بالقرب من تلك المدينة الاستراتيجية نهر يسمى نيرا بورا Nira-pora، وبه ميناء تجاري مهم، ويقيم في تلك المنطقة سكان من المسلمين إلى جانب بعض الوثنيين. ثم بعد تجاوز جبل ديلي Dely باتجاه الجنوب، وعند سفح هذا الجبل توجد مدينة تسمى مارافي Marave– وهي مدينة قديمة وذات وضع مميز–

---

١ Gaspar Correa, Op. cit., p. ١٥٥-١٥٦.

٢تحفة المجاهدين، ص ٢٤٢.

٣ Barbosa, Op. cit., p. ١٤٦-١٤٧.

٤ Barbosa, Op. cit., p. ١٤٩-١٦٣.

المأهولة بخليط من السكان المسلمين والوثنيين واليهود. وتتميز هذه المنطقة بوفرة في أسماكها، لذلك يتوجه عدد كبير من السكان بمراكبهم وشباكهم لصيد تلك الأسماك.

وبالسير قدما بمحاذاة الساحل ناحية الجنوب يوجد أحد الأنهار المقام على طول ضفافه إحدى المدن الجميلة المأهولة بكاملها بالسكان المسلمين المحليين، وهي تسمى بلبتان Balapatan. وتتميز تلك المدينة باشتمالها على العديد من الآبار الجيدة ذات الحجم الكبير، وهو الأمر الذي يمثل بطبيعة الحال مصدرا إضافيا لقيام نهضة زراعية فيها. علما بأن هناك قلعة حصينة كانت توجد بمدخل هذه المدينة، ودائما ما كان يقيم فيها ملك كننور لفترات طويلة، وهذا بلا شك يدل على الأهمية الاستراتيجية التي كانت تمثلها هذه المدينة للحاكم. وعلى بعد أربعة فراسخ من هذا المكان توجد مدينة أخرى تسمى برانكو Pranco التي تشتمل على خليط من سكان مابيلا المسلمين إلى جانب الهنود الوثنيين. وتتميز هذه المدينة باتساعها، كما أنها اشتهرت بتجارتها، حيث كان يفد إليها عدد كبير من تجار مملكة نارسينجا.

ثم نصل بعد ذلك إلى مدينة كننور– التي تعد حاضرة هذه المملكة– وهي محطة تجارية رئيسة على الساحل؛ حيث يتجمع فيها التجار المسلمون والوثنيون، سواء أكانوا محليين– ومنهم مسلمو مابيلا– أو قادمين من مناطق خارجية، لذلك فقد كان ميناء هذه المدينة ممتلئا بالسفن التجارية ذات الأحجام المختلفة، القادمة من كمباي وهرمز وجوا (كووه) Goa وسيلان وجزر المالديف وغيرها من المناطق الأخرى. وهناك كذلك مدينة سيكات Ciecate، التي يقول عنها بربوزا إنه لا يوجد بها سوى مسلمي مابيلا، وأن لها نشاطا كبيرا في حركة النقل التجاري البحري في المنطقة.

كما أن بربوزا يتحدث بإعجاب عن مدينة تورماباتاني Tormapatani (يذكرها ابن بطوطة باسم ده فتن)، التي تقع بالقرب من أحد الأنهار (Tarmapatam)، ذاكرا أنها آخر مدينة في مملكة كننور في الطريق نحو كاليكوت؛ فنراه يحدثنا عن سعتها ونفوذها الكبير، مشيرا إلى أن معظم سكان المدينة من المسلمين سكان البلاد الأصليين، وأنهم يمتلكون ثروات كبيرة، خاصة وأنهم من كبار التجار، ولديهم كثير من السفن التجارية. كما أن هذا المؤرخ يشير إلى أن هؤلاء السكان كان يمتلكون العديد من المساجد التي يؤدون فيها شعائرهم، والتي تتميز بسعتها ورحابتها. وفي إشارة إلى قوة هؤلاء المسلمين وشدة بأسهم، يذكر بربوزا أنه في حالة تعرضهم لأي أذى أو ظلم من طرف حاكم المملكة، فإنهم كانوا يتمردون ويعلنون الخروج عن

طاعته، ولا يتوقفون وينتهي عصيانهم حتى يذهب إليهم الملك بنفسه، ويسترضيهم ويرفع عنهم المظالم الواقعة بحقهم. بل إن بربوزا يقول إنه لولا ظهور قوة البرتغاليين وفرض سيطرتهم على بلاد الهند، فإن تلك المدينة كانت على وشك أن تضع على كرسي الحكم واحدا من مسلميها، بل وكانت قادرة على نشر الدين الإسلامي في مليبار وتحويل جميع سكانه "للملة المحمدية". وعلى بعد أربعة فراسخ من النهر المشار إليه سابقا توجد مدينة أخرى للمسلمين وحدهم تسمى كوتاوجاتو Cotaogato، ويصفها بربوزا بالاتساع والثراء، نتيجة للنشاط التجاري الكبير الذي كانت تمارسه مع التجار القادمين إليها برا من مملكة نارسينجا.

مهما يكن من أمر، فإنه من خلال حديث بربوزا يتبين لنا أن كننور كانت تمثل ثقلا كبيرا في تواجد مسلمي مابيلا على الساحل. والواقع أنه مما عزز من الوجود الإسلامي في كننور هو وصول علي راجا- زعيم عائلة أراكال Arakkal- للحكم في هذه المدينة؛ فهذه الأسرة تعود سلالتها إلى الأيام الأول لظهور مابيلا، وإن كانت هناك بعض الآراء التي تزعم أن على راجا الأول كان أحد أمراء الناير، الذي تولى منصب الوزارة لملك كولاتيري Kolattiri، ثم اعتنق الإسلام، بعد أن كسر "الطبقية الاجتماعية للناير" بزواجه من امرأة مسلمة. وقد ظل علي راجا لفترة من الزمن يعيش في كولاتيري، ثم تمكنت تلك الأسرة- تقريبا خلال القرن الرابع عشر الميلادي قبل وصول البرتغاليين للمنطقة- من أن تقيم لها إمارة في كننور تحكم فيها، وقد تمددت ممتلكاتهم لتصل أحيانا حتى مدينة تيليشري Tellicherry. ولا شك أن كل هذا قد أعطى زخما وقوة للمسلمين في تلك المملكة [1].

ثم إذا ما انتقلنا من مملكة كننور- بمحاذاة الساحل ناحية الجنوب- إلى مملكة أخرى على ساحل المليبار، والتي تعد المكان الأهم بالنسبة لمسلمي مابيلا؛ حيث يكثر وجودهم في مدنها، ويبرز دورهم الاجتماعي والتجاري داخل المجتمع، وأعني بها مملكة كاليكوت. فبعد عبور نهر تارمبتام وعلى الجهة المقابلة له توجد مدينة لمسلمي مابيلا تسمى تريفنجاتي Terivangaty، والتي تعد ميناء نقل بحري مهم. وبالقرب من هذه المنطقة يوجد نهر آخر مقام على ضفته مدينة أخرى أكثر سعة ورحابة تدعى مازيري Mazery، وهي تخص كذلك المسلمين، ويشير بربوزا إلى أن معظم سكان

١زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٨٢؛

R. Miller, Op. cit., p. ٥٧; K. P. Padmanabha, Op. cit., p. ٥٣٩.

هذه المدينة من كبار التجار والبحارة المهرة. ثم بالقرب من مازيري توجد مدينة بحرية تجارية أخرى للمسلمين تسمى شمونباي Chemonbay. لكن المؤرخ البرتغالي يشير إلى أن المسلمين بهذه المدن الثلاث كانوا يخضعون لحكم بعض الأمراء النايرNayrs.

ثم يعدد لنا بربوزا بعض المدن داخل مملكة كاليكوت التي كانت تشتمل على عدد كبير من السكان المسلمين مثل تيركور Tircore، وباندارني Pandareni، حيث يمتلك السكان العديد من السفن التجارية. وهناك كذلك مدينة كابوكاد Capucad، التي يوجد بها نهر صغير، ولها تجارة كبيرة مع المناطق الخارجية؛ حيث تقوم بتصدير منتجاتها المحلية لهذه الجهات، كما أن كابوكاد تشتهر بإنتاجها للزمرد. وعلى بعد فرسخين باتجاه الجنوب توجد مدينة كاليكوت الشهيرة (حاضرة المملكة) والمركز الرئيس للمسلمين، وبالقرب منها توجد مدينة شاليات (تشالياني Chalyani وتسمى الآن Peypore)، التي يقيم فيها عدد كبير من مسلمي مابيلا، كما توجد بها حركة ملاحية نشطة. كما أن بوربورانجاري Purpurangari كانت مأهولة بالسكان المسلمين إلى جانب الوثنيين، ويقوم هؤلاء السكان بالتجارة في العديد من أنواع السلع والبضائع. كما يوجد مدينتا بارافانور وتانور Paravanor and Tanor اللتان "يفصل بينهما خمسة فراسخ"، ويوجد بهما كثير من السكان المسلمين، لكن الحكم فيهما كان بيد أمراء النايرِ، الذين كانوا يخرجون أحيانا على سلطة زامورين المملكة. وبهاتين المدينتين تجارة كبيرة كان يسيطر عليها المسلمون. أما مدينة فنان (بوناني) التي تقع على ضفة أحد الأنهار فمعظم سكانها من المسلمين، إلى جانب عدد قليل من الوثنيين. والواقع أن التجار المسلمين في هذا المكان يعدون هم الأكثر شهرة والأكثر ثراء بين أبناء ملتهم المقيمين على ساحل مليبار، لذلك فقد وجدنا ملك كاليكوت يقوم بفرض ضريبة كبيرة على هذه المدينة. وهناك أخيرا مدينة كرانجولور Crangolor، التي تقع على ضفاف النهر الفاصل بين حدود مملكة كاليكوت وبلاد كشي (تسمى كذلك كوتشي وكوشي) Cochin، وهي تدخل في ملك الزامورين رغم أن حاكم كشي له بعض الحقوق بها، كما يقول بربوزا. وهذه المدينة يسكنها طوائف مختلفة في أعراقها ودياناتها مثل المسلمين (سواء من مابيلا أو من التجار المسلمين الوافدين) والهنود الوثنيين واليهود والمسيحيين.

أما بالنسبة لكشي فالملاحظ أن بربوزا يشير إلى أنها لا توصف بالمملكة؛ فهي بلاد صغيرة، كما أنها كانت خاضعة– قبل وصول البرتغاليين– لملك كاليكوت، الذي

كان يمنح الحكم بها لأحد الأمراء مدة حياته، كما أن هذا الحاكم كان ملزما بحمل ضريبة سنوية لبلاط الزامورين. أما من حيث السكان القاطنين بها فيشير المؤرخ البرتغالي إلى أن معظمهم كانوا من مسلمي الكجرات والوثنيين، الذين كانت لهم تجارة كبيرة مع معظم مدن الساحل الهندي. وفي الحقيقة لا توجد أي إشارة من بربوزا لوجود مسلمي مابيلا في هذه المنطقة. وربما يعود هذا الأمر إلى خضوع حاكم هذه المدينة – طواعية– للبرتغاليين، وهو الأمر الذي دفع السكان المسلمين لمغادرتها والتوجه إلى مملكة كاليكوت [١].

وبانتهاء حدود كشي والدخول إلى مملكة كولم (كويلون) Koulam نرى ظهورا لمسلمي مابيلا في مدينة كايمكولان Kaymcolan، التي تشتمل كذلك على عناصر هندوسية ومسيحية. وتشتهر هذه المدينة بإنتاج كميات كبيرة من الفلفل، الذي كان يصدر إلى العديد من البلدان. وبالتوجه ناحية الجنوب تظهر لنا كولم– المدينة الرئيسة في المملكة– والتي كانت تحتوي على سكان من المسلمين والهندوس والمسيحيين كذلك. والواقع أن سكان هذه المدينة كانوا من كبار التجار في المنطقة كلها، كما أن تلك التجارة حققت لهم ثروات كبيرة؛ فقد كانوا يبحرون بسفنهم إلى سيلان وملقا وسومطرة وبلاد البنغال وبيجو وغيرها من مدن وجزر جنوب شرق آسيا. ولعل السلعة الأكثر شهرة للمدينة هي الفلفل، الذي كان له سوق رائج في ذلك الوقت. وملك هذه المدينة من الوثنيين، وهو يملك بلادا كثيرة وله ثروة ضخمة، كما أنه يمتلك جيشا كبيرا من المحاربين. ثم قبيل الوصول إلى رأس كومورين– حيث تنتهي حدود مملكة كولم وساحل مليبار بصفة عامة– توجد مدينة أخرى نشهد بها تواجدا للمسلمين إلى جانب الوثنيين، وهي مدينة ترينانجوتو Tirinangoto، التي تشتهر بوفرة في المحاصيل والسلع الغذائية، خاصة الأرز واللحوم، كما أن لها تجارة بحرية رائجة. ومن خلال هذا العرض يتضح بوضوح أن مسلمي مابيلا كان لهم حضور كبير على معظم مدن ساحل مليبار، وأنهم كانوا يسيطرون على الحركة التجارية بها، وأن الاستثناء الوحيد كان في مدينة كشي، وهذا الأمر– كما ذكر– له أسبابه ومبرراته، وهو خضوع حاكمها للعدو الأول بالنسبة للمسلمين وهم البرتغاليون.

---

١ J. Mailaparambil, The Ali Rajas of Cannanore: status and identity at the interface of commercial and political expansion, ١٦٦٣-١٧٢٣, Retrieved from https://hdl.handle.net/١٨٨٧/١٢٤٨٨, p. ٦٣-٦٤.

٤. الأوضاع الحياتية لمسلمي مابيلا داخل المجتمع المليباري

رغم أن المسلمين في مليبار كانوا يحكمون من قبل ملوك وسلاطين وثنيين– إذ لم يكن لهم "أمير ذو شوكة يحكم عليهم"– إلا أن هؤلاء الحكام منحوهم كثيرا من الحريات في ممارسة حياتهم الاجتماعية وشعائرهم الدينية، فكانوا يؤدون صلاة الجمع ويحتفلون بأعيادهم ومناسباتهم دون أن يجدوا أي مضايقات، ومن حاول تعطيل الجمع على المسلمين "آذوه وغرموه المال". كما أنهم كانوا يمنحون المسلمين الحق في التحاكم لشرعهم، فكانوا يعينون القضاة والخطباء، ولا يحكم على مسلم بالقتل– في حالة ارتكابه لجرم يستحق ذلك– قبل الرجوع إلى كبراء المسلمين وأخذ الإذن منهم في ذلك [١]. من ناحية أخرى، لم يتعرض مسلمو مليبار لأي تعسف أو ظلم من قبل هؤلاء الحكام؛ فلم يفرضوا عليهم جبايات أو ضرائب، باستثناء أخذ العشور ممن يمارسون مهنة التجارة، أو فرض بعض الغرامات على من يصدر بحقهم حكم بذلك، بسبب مخالفتهم للقواعد والقوانين المرعية أو ارتكابهم لجرم. هذا فضلا عن أنهم كانوا لا يأخذون خراجا من أصحاب الزراعات والبساتين "ولو كثرت". كما أنهم ابتعدوا عن ترويع السكان المسلمين؛ فلا يدخلون عليهم بيوتهم بغير إذنهم حتى "إذا صدر منهم جرأة ولو قتلا بظلم، بل يكفونهم إخراج صاحب الجرأة من بينهم" [٢]. وفي الحقيقة، إن روح التسامح والعدل التي كان يتعامل بها حكام هذا الساحل– وبلاد الهند على العموم– نجد لها ذكرا عند الإدريسي الذي يقول: "وبسط العدل في أهل الهند طبيعة لا يعولون على شيء سواه، وبفضل عدالتهم وحفظ عقودهم وحسن سيرهم ذكروا أنهم وجملة أهل تلك البلاد في خير، وكثر القاصد إليهم، وبلادهم عامرة وأحوالهم راجحة وادعة" [٣]. كما أن زين الدين المليباري يرجع سبب انتشار الإسلام في معظم مدن هذا الساحل إلى "قلة ظلم رعاتها، مع كونهم وكون عساكرهم كفرة، وبرعايتهم لعاداتهم المتقدمة (من العدل) وعدم مخالفتهم لها إلا نادرا، والمسلمون فيها رعايا وقليلون لا يبلغون عشر معاشيرهم" [٤].

والواقع أننا نستطيع من خلال رواية الرحالة ابن بطوطة– الذي قام بزيارة العديد من مدن المليبار– أن نتبين المكانة المميزة التي كان يتبوأها المسلمون داخل

١زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

٢زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٤٤.

٣نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ١٨٩.

٤ تحفة المجاهدين، ص ٢٤٣.

المجتمع؛ فهو يقول "والمسلمون أعز الناس بها (أي في المليبار)"، كما أنهم عندما كانوا يسيرون في طرقاتها فإن السكان الوثنيين كانوا يتنحون عن الطريق حتى يمر هؤلاء المسلمون، احتراما وتقديرا لهم [١]. كما أن عبد الرزاق- مبعوث السلطان التيموري شاه رخ إلى الزامورين عام ١٤٤١م- يشير إلى أن مسلمي هذه البلاد كانوا يتمتعون بحياة الرفاهية؛ "فقد كانوا يرتدون الثياب الفخمة باهظة الثمن مثل العرب، ويظهرون أنواعا مختلفة من الكماليات" [٢]. ولعل هذه القوة التي كان عليها مسلو مابيلا داخل المجتمع المليباري جعلت المؤرخ البرتغالي بربوزا يقول إنه لولا وصول البرتغاليين للهند لتمكن هؤلاء المسلمون من بسط نفوذهم على هذه البلاد، وتنصيب واحد منهم ملكا عليها؛ فالهجمات المتكررة التي كان ينفذها مابيلا ضد الوثنيين دفعت كثيرا منهم إلى التحول للدين الإسلامي، خاصة بعدما رأوا حسن تعامل المسلمين معهم، بالإضافة إلى أن رجال مابيلا كانوا يتزاوجون مع النساء الوثنيات بعد اعتناقهن للإسلام، وهو الأمر الذي أدى إلى زيادة عدد المسلمين مع مرور الوقت [٣].

وفي المجمل، فقد كان للمسلمين "حرمة وعزة" في هذه البلاد، ويرجع زين الدين المليباري حسن المعاملة تلك التي كان يجدها المسلمون من هؤلاء الحكام الوثنيين إلى الفوائد التي كان يحققونها من وراء هؤلاء المسلمين، فإن "أكثر عمارات بلادهم بهم". وفي المقابل فإن هذا المؤرخ يعزو حالة الرخاء والازدهار ورفاهية العيش التي كان عليها مسلمو مليبار إلى تلك المعاملة الطيبة والرفق والعدل الذي وجدوه من قبل حكام هذا الساحل، بل إن زين الدين يقول إن الخراب الذي لحق بالمسلمين وزوال عزهم بعد وصول البرتغاليين للمنطقة إنما يعود إلى عدم شكرهم لهذه النعم؛ إذ إنهم "أذنبوا وخالفوا فلذلك سلط الله عليهم البرتغاليين من الإفرنج النصارى خذلهم الله تعالى، فظلموهم وأفسدوا فيهم وفعلوا فعائل شنيعة قبيحة لا تحصى" [٤].

وفيما يخص العلاقة التي ربطت مسلمي مابيلا ببقية سكان البلاد الهندوس الوثنيين، فيبدو أنها كانت علاقات طيبة يسودها المشاعر الودية وكثير من روح التسامح؛ إذ إنه كانت هناك قاعدة تحكم المجتمع مفادها أنه في المسائل والأمور الاجتماعية يجب أن يسمح لكل فئة وطائفة داخل المجتمع- أيا ما كانت- بممارسة

---

١ الرحلة، ٤/٣٦.

٢ R. Miller, Op. cit., p. ٥٧; K. P. Padmanabha Menon, Op. cit., p. ٥٣٨.

٣ Barbosa, Op. cit., p. ١٤٦.

٤ تحفة المجاهدين، ص ٢٤٣، ٢٦٢.

حياتها الخاصة بكل حرية ودون أي قيود. وعلى الرغم من أن حكام مدن الساحل وقادة الدولة كانوا وثنيين إلا أنهم أبدوا كثيرا من الاحترام والتقدير لمعتقدات وعادات المسلمين، وتجنبوا القيام بأي عمل عدواني ضدهم [١]. وفي كل الأحوال كانت مليبار – كما يقول بانيكار– "تعيش حياة سعيدة نسبيا، رغم أنها كانت معزولة سياسيًا. ورغم كذلك أن تنظيماتها كانت بدائية، إلا أنها طورت نظاما ازدهرت فيه التجارة، وعاشت فيه مجتمعات مختلفة معا دون تعصب أو احتكاك، وكان التسامح الديني المطلق موجودا" [٢]. ولعلنا نلتمس روح التعايش هذه من خلال حديث المؤرخ بربوزا الذي يشير إلى تنوع السكان على ساحل مليبار، ذاكرا أنه كان يوجد ١٨ ملة (طائفة سكانية) ذات أعراق وأديان ومهن مختلفة، ومع ذلك فإنهم كانوا يعيشون في سلام وحرية وأمان؛ وإن تجرأ أحد من السكان على الاعتداء على آخر– من طائفة مختلفة– فإنه "يلحق به العار"، وقد يصل الأمر إلى الاقتصاص منه وفقد أملاكه وحياته. وإن كان هذا لم يمنع بطبيعة الحال من وجود تمييز طبقي بين تلك الفئات؛ فقد كان للبراهمة والناير من الحقوق والامتيازات ما لم يكن لبقية الطبقات الفقيرة من العوام والفلاحين [٣]. وعن هذا التلاحم والاندماج بين تلك الأطياف المختلفة في مجتمع مليبار يقول ميلر: "عندما نفكر في كيفية تعايش الهندوس والمسيحيين والمسلمين في سياقهم التعددي، قد نستنتج ونصل إلى حقيقة مفادها أن هذا الأمر ربما يكون أطول حقبة من الانسجام بين الأديان عرفت في تاريخ البشرية، وهو أمر يجعلنا نشعر بالدهشة في عصرنا الحاضر"[٤].

وفي محاولة من المؤرخ بربوزا لتقدير عدد مسلمي مابيلا على ساحل مليبار، نراه يقول إنهم– فيما يبدو من وجهة نظره– يمثلون الخمس من إجمالي عدد السكان، وهو يصفهم بأنهم كانوا يمشون عراة، مثل معظم سكان تلك المنطقة، ولكن من قبيل التميز والاختلاف فإنهم كانوا يضعون قبعة مستديرة على رءوسهم، كما أنهم كانوا ذوي لحى كثيفة [٥]. كما يفهم من حديث ابن بطوطة أنه كان هناك تكافل وتعاون ما بين المسلمين؛ فيذكر أنه لما كان بمدينة أبي سرور (بارسيلور Barcelor) التقى

---

١ K.M. Panikkar, Op. cit., p. ٢٤.

٢ K.M. Panikkar, Op. cit., p. ٢٤-٢٥.

٣ Barbosa, Op. cit., p. ١٠٣-١٠٤, ١٢١-١٢٤.

٤ R. Miller, Mappila Muslim Culture, p. ٢٩.

٥ Barbosa, Op. cit., p. ١٤٦.

بأحد شيوخها ويدعى جمعة المعروف بأبي ستة، وقد وصفه بالجود والكرم، وأنه "كان ينفق أمواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت عن آخرها" [1].

وقد كان مسلمو مليبار على المذهب الشافعي؛ فيذكر ابن بطوطة أنه عندما زار مدينة هنور (كنور Kannur) وجد أهلها على هذا المذهب. كما أنه التقى بقاضيها وهو نور الدين علي وبعض رجال الدين كالفقيه إسماعيل، الذي يصفه بالورع وحسن الخلق، والشيخ محمد الناقوري، الذي استضاف هذا الرحالة بزاويته وأكرم وفادته. ولما وصل هذا الرحالة إلى منجرور وجد كذلك قاضيها- الذي يسمى بدر الدين المعبري- على المذهب نفسه [2]. كما أن السفير التيموري عبد الرزاق يشير إلى وجود عدد كبير من المسلمين بمدينة كاليكوت، الذين كانوا يتبعون المذهب الشافعي، هذا إلى جانب وجود أحد القضاة بالمدينة [3].

أما عن النساء المسلمات داخل المجتمع، فعند حديثه عن نساء هنور يذكر ابن بطوطة أنهن- وجميع نساء الساحل- لم يكن يلبسن المخيط، "وإنما ثيابا غير مخيطة تحتزم إحداهن بأحد طرفي الثوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها"، كما أنه يصفهن بالجمال والعفاف، هذا فضلا عن التزامهن بالشرع وأحكامه؛ فجميعهن يحفظن القرآن الكريم. والواقع أن رجال الدين في تلك المدينة كانوا حريصين على إنشاء المؤسسات الدينية لتربية النشء على التعاليم الإسلامية؛ من ذلك توفير ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد، وهو أمر لم يشاهده ابن بطوطة في أي مكان آخر [4].

وفيما يتعلق بأهم الأشغال التي كان يمارسها مسلمو مليبار، فتأتي التجارة بطبيعة الحال في مقدمة تلك المهن؛ فمن خلال ما تم ذكره مسبقا عن أهم المدن التي يتركز فيها مسلمو مابيلا، رأينا بربوزا يشير إلى التجارة باعتبارها المهنة الأهم لهؤلاء السكان، كما أنه أشار إلى العلاقات التجارية التي ربطت سكان تلك المدن بالمناطق الخارجية. وبحسب رواية بربوزا كذلك فإن المسلمين تمكنوا- إلى حد بعيد- من احتكار التجارة البحرية في هذه المنطقة، هذا فضلا عن أنهم كانوا يمتلكون- في

---

١ الرحلة، ٤/٣٩.

٢ الرحلة، ٤/٣٣-٣٤، ٤٠.

٣ R. Miller, Mappila Muslims of Kerala, p. ٥٧.

٤ الرحلة، ٤/٣٤.

المناطق الداخلية- كثيرا من العقارات والمزارع [١]. أما الرحالة ابن بطوطة فيقول إنه لما زار هنور وجد أهلها يعيشون على التجارة في البحر "ولا زرع لهم" [٢]. كما أنه يشير كذلك إلى أنه كان يوجد بمدينة منجرور (Mangalore) أربعة آلاف مسلم، كانوا يعملون بالتجارة. ونظرا لأهمية هؤلاء السكان المسلمين بالنسبة لحاكم هذه البلاد الوثني- بسبب الأموال التي كان يتحصل عليها من وراء تجارتهم- فإنه إذا ما وقعت خصومة وحرب ما بينهم وبين غيرهم من سكان المدينة الوثنيين فإنه كان يتدخل للصلح بينهم. وقد أخبر قاضي المدينة ابن بطوطة بأن المسلمين لهم سطوة وقوة كبيرة في هذه البلاد، "حتى أن السلطان كان يخافهم ويهابهم" [٣].

مهما يكن من أمر، فإنه مع وصول البرتغاليين للساحل الهندي بدأت تتبدل موازين القوى التجارية في المنطقة، وقد منحت الأحداث المتسارعة مسلمي مابيلا فرصة لفرض هيمنتهم على هذه التجارة؛ فالحرب والصراعات التي نشأت بين هؤلاء الأوربيين وبين التجار المسلمين العرب والفرس انتهت بانسحاب هؤلاء من شبكة التجارة في منطقة المحيط الهندي، وهو الأمر الذي مكن تجار مليبار المسلمين- الذين لم يكونوا في البداية أعداء بالنسبة للبرتغاليين- من ملأ هذا الفراغ، وتحولوا من كونهم "تجارا ساحلين محليين" إلى "تجار إقليميين"؛ فزاروا العديد من موانئ المحيط الهندي [٤]. فعند حديثه عن سيلان يذكر بربوزا أنه بفضل ازدهارها وثرواتها وتجارتها الرائجة فإن تلك الجزيرة قد جذبت عددا كبيرا من التجار المسلمين للإقامة فيها، ومنهم تجار مسلمي كاليكوت (مابيلا). والواقع أن تجار كاليكوت كان لهم تأثير كبير داخل تلك الجزيرة، حتى أن بربوزا يذكر أن اللغة السائدة في هذا المكان كانت لغة مليبار ولغة كوروموندال [٥]. وأثناء حديثه عن منطقة كويلاكار Quilacare (التي كانت خاضعة لنفوذ ملك كولم) يذكر المؤرخ نفسه أنها تشتمل على العديد من مدن الوثنيين، بالإضافة إلى عدد كبير من الموانئ التجارية، وأن تجار مسلمي مابيلا كانوا يأتون من ساحل مليبار للتجارة في هذه المدينة، وكانوا يحملون على متن سفنهم سلع وبضائع مدينة كمباي الكجراتية، وهي منتجات كان لها قيمة كبيرة في تلك المدن، إلى جانب جلب

١ Barbosa, Op. cit., p. ١٤٦.

٢الرحلة، ٣٤/٤.

٣الرحلة، ٤٠/٤.

٤ J. Mailaparambil, Op. cit., p. ٦٥-٦٦; Malyn Newitt, A History of Portuguese Overseas Expansion, ١٤٠٠-١٦٦٨, Routledge, London, ٢٠٠٥, p. ٥٨-٥٩.

٥ Barbosa, Op. cit., p. ١٦٦-١٦٧.

عدد من الخيول العربية. وفي المقابل كان هؤلاء التجار يحملون من أسواق كويلاكار إلى مليبار الأرز والأقمشة [1].

كما أن بربوزا عند حديثه عن كورومانديل ذات الأهمية التجارية الكبيرة – على الساحل الشرقي للهند– والتي كانت تخضع لنفوذ ملك نارسينجا، يذكر أن سفن تجار مليبار دائما ما كانت تأتي إلى هناك للحصول على الأرز في مقابل تزويدهم ببضائع كمباي، مثل النحاس والزئبق والفلفل والمنسوجات. والواقع أنه مع بداية القرن ١٠هـــــ/١٦م ازدادت أهمية كورومانديل التجارية، خاصة بعد قيام السفن البرتغالية بمهاجمة سفن التجار المسلمين (بارديسي) داخل مياه المحيط، لذلك فإن هؤلاء التجار لم يجرؤوا على التوجه إلى ساحل مليبار كما كان الأمر من قبل لتفريغ حمولة سفنهم من البضائع القادمين بها من ملقا وبلاد البنغال وبلاد الصين، فاضطروا لإنهاء رحلتهم في موانئ كورومانديل. وقد كان هذا الأمر فرصة لظهور تجار مليبار المسلمين بدور الوسيط التجاري، وذلك بنقل تلك البضائع على متن سفنهم إلى الساحل الهندي والسواحل العربية [2].

أما بالنسبة لمهنة الزراعة، فيبدو أنها قد جذبت إليها فئة كبيرة من مسلمي مابيلا، خاصة وأن الغالبية العظمى من السكان المحليين الوثنيين الين تحولوا للإسلام إنما كانوا في الأصل من "الطبقة المتدنية" التي كانت تمتهن الزراعة. وتعد مدينة منجرور من أكثر المدن شهرة بزراعة الفلفل والزنجبيل، لذلك فإن التجار القادمين من بلاد اليمن وبلاد فارس إلى الساحل كثيرا ما كانوا ينزلون بها للتجارة. وإلى جانب هذه التوابل فإن للمدينة شهرة كذلك بزراعة الأرز، ومنها كان يصدر لمعظم نواحي مليبار، ونظرا لسعره المنخفض فإنه كان يقبل على شرائه العامة من السكان [3]. كما أن بربوزا يذكر أن مدينة هنور كانت تشتهر بزراعتها للأرز، وأن سكان مليبار كانوا يأتون إليها للحصول على هذه الحبوب [4]. والأمر نفسه ينسحب كذلك على مدينة أبي سرور (بارسيلور) التي نالت شهرة كبيرة بزراعتها للأرز، وكانت تأتي إليها السفن من كل مكان للحصول عليه [5]. والواقع أن المزارعين كانوا يمنحون أولوية لزراعة محصول

---

١ Barbosa, Op. cit., p. ١٧٢.

٢ Barbosa, Op. cit., p. ١٧٤.

٣ابن بطوطة، المصدر السابق، ٤/٤٠.

٤ Barbosa, Op. cit., p. ٧٩.

٥ Barbosa, Op. cit., p. ٨٢.

الأرز، وذلك لأنه يمثل الغذاء الرئيس لجميع سكان مليبار، فيذكر ابن بطوطة أنه قضى في تلك البلاد- إلى جانب سيلان وبلاد المعبر- ثلاث سنوات لم يأكل فيها سوى الأرز[1].

وفيما يخص الجانب الثقافي والديني، فإن ثقافة ولغة مسلمي مابيلا تسمى بالمالايالامية، بينما يطلق عليهم الشعب المالايالي [2]. وقد أنتجوا ثقافة متميزة تعتمد باستمرار على التأثيرات الخارجية، ولكنها في الوقت نفسه لا تفقد روحها الأساسية التقليدية؛ فقد ساهم مسلمو مابيلا بحظ وافر في انتاج تلك الثقافة النابضة بالحياة [3]. والواقع أن التجار المسلمين الأوائل عندما أتوا من جزيرة العرب إلى ساحل مليبار فإنهم حملوا معهم ثقافة متنوعة وراسخة، وقد ظهر أثر تلك الثقافة في جيل المولدين الجديد مابيلا، الذين زاوجوا بين تلك الثقافة الإسلامية- بكل تشريعاتها ونظمها وأخلاقياتها- والثقافة والتقاليد الهندية المحلية، فانتجوا لنا فكرا وثقافة جديدة منحتهم طابعا خاصا ومميزا في المجتمع الهندي [4].

وبالنسبة للغة التي كان يتحدث بها مسلمو مابيلا، فالواقع أن التجار العرب الأوائل الذين كانوا يصلون إلى مليبار وجدوا أن اللغة المنتشرة آنذاك هي المالايالامية الساحلية، التي كانت في مرحلتها الأولى من التطور. وإذا كان مرجحا أن هناك بعضا من الموظفين المحليين- المسئولين عن الشئون التجارية- إلى جانب عدد من التجار المحليين قد تعلموا اللغة العربية ليتعاملوا مع هؤلاء التجار الواصلين من الجزيرة العربية، إلا أن الشيء المؤكد هو أن التجار العرب قد تعلموا المالايالامية حتى يتمكنوا من مواصلة أعمالهم. أما بالنسبة للجيل الجديد مابيلا فإنهم بلا شك كانت لديهم معرفة كبيرة باللغة العربية- لغة الآباء- التي كانوا يؤدون بها شعائرهم، لكن ظلت "اللغة المالايالامية المنطوقة" هي الأكثر استخداما وانتشارا فيما بينهم. وقد ساهم مسلمو مابيلا في تطوير المالايالامية نفسها من خلال إدخال العديد من المفردات والمصطلحات العربية المختلفة، كما أصبحت هناك لهجة على ساحل مليبار تسمى مالايالام مابيلا Mappila Malayalam، والتي تتشابه حروفها مع حروف اللغة العربية، وهي تعد

١الرحلة، ٤/٣٥.

٢كلمة مالايالام تعني "المكان بين الجبال والبحر"، وهو يشير إلى الموقع الجغرافي لكيرالا (مليبار قديما) باعتباره شريطًا ساحليًا من الأرض، يحده من جانب بحر العرب (من ناحية المحيط الهندي) ومن الجانب الآخر جبال غات الغربية. أنظر:

R. Miller, Mappila Muslim Culture, p. ٦.

٣ R. Miller, Op. cit., p. ٥-٦.

٤ R. Miller, Op. cit., p. ١٣-٢٤.

واحدة من مجموعة اللهجات المميزة الموجودة في اللغة المالايالامية المنطوقة. ومن أهم الأسباب التي دفعت مابيلا إلى اختراع هذه اللهجة هو حرصهم على الاحتفاظ بالنطق الصحيح وبالهيئة الأصلية لبعض الكلمات العربية والمصطلحات الشرعية بدون تحريف أو تبديل، كما أن الباعث لهذا الأمر كذلك هو التسهيل للعرب الوافدين إلى بلادهم على تعلم تلك اللهجة، نظرا للتقارب في حروفها مع لغتهم الأصلية العربية. جدير بالذكر أن هذا الأمر حدث قبل فترة طويلة من تطور اللغة الأردية كلغة مسلمة مهيمنة في شمال الهند، وهو الأمر الذي يؤكد على أن مسلمي مابيلا كان لهم الفضل في أن يجعلوا المالايالامية "المطعمة بالعربية" أول لغة إسلامية مستعملة في الهند، كما أن اللغة الأردية لم تلعب سوى دور ثانوي في حياة مسلمي مابيلا [١]. وفي هذا السياق يشير بربوزا إلى أن كل سكان ساحل مليبار كانت تجمعهم ثقافة وعادات واحدة، كما أنهم يتحدثون بلغة واحدة، أطلق عليها اسم maleama [٢]. والواقع أنه لا يجب التقليل من الدور الذي لعبته اللغة العربية في تشكيل ثقافة مابيلا، إلى جانب بطبيعة الحال العامل الأهم وهو المعتقد والشريعة الإسلامية؛ "فقد كان تأثيرها عليهم مستمرا وحيويا، فهي لغة أرض آبائهم الأصلية ولغة كتابهم المقدس، وهي أسباب كافية لتقديرهم واهتمامهم بها بل والتحدث والتخاطب بها، لكن دون تجاهل حبهم كذلك للغتهم الأم المالايالامية" [٣]. ومما يؤكد على انتشار اللغة العربية وذيوعها في كاليكوت– أهم مدن مليبار ومركز ثقل مابيلا– هو أن الرسالة التي حملها القائد البرتغالي فاسكو دي جاما من ملك بلاده إلى الزامورين كانت مكتوبة بهذه اللغة [٤].

وفيما يتعلق بمساجد مابيلا في مليبار، فالواقع إن الحديث عن أقدم تلك المساجد هو موضوع مختلف عليه، بيد أن الشيء المؤكد هو أن بناء تلك المؤسسات الدينية المهمة يعود إلى وقت مبكر من تاريخ مابيلا؛ فهناك قصة تروى عن قيام مالك بن دينار– الذي ارتحل على طول ساحل مليبار من كوتشي الحالية وحتى منجلور في أواخر القرن ١هـــــــ/٧م أو ٢هـــــــ/٨م– بإنشاء العديد من المساجد. ويعدد لنا زين الدين المليباري أسماء تلك المدن التي تم تشييد مساجد بها، مثل كدنكلور وكولم وهيلي

١ R. Miller, Op. cit., p. ٢٧-٢٨, ٧٨; زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٨٥-٨٦

٢ Barbosa, Op. cit., p. ١٠٣.

٣ R. Miller, Op. cit., p. ٧٥, ٧٧-٧٨.

٤زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٨٣.

ومنجلور وشاليات وغيرها من الأماكن الأخرى [1]. كما أن الرحالة ابن بطوطة أثناء تنقله بين العديد من مدن مليبار كثيرا ما كان يذكر هذه المساجد؛ فيوجد واحد منها في مدينة فاكنور "تقام به الجمع"، ومن قام ببنائه هو أحد أكابر مسلمي المدينة ويدعى حسين السلاط، هذا بالإضافة إلى وجود خطيب وقاض بالمدينة [2]. كما أنه أشار إلى تعظيم المسلمين والكفار لمدينة هيلي بسبب مسجدها الجامع، "فإنه عظيم البركة مشرق النور، وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة". وقد كان هذا المسجد بمثابة منارة علمية؛ حيث كان يفد إليه طلاب العلم من شتى الأماكن، وكانت لهم رواتب تصرف من مال وأوقاف المسجد، هذا فضلا عن وجود مطبخ ملحق بالمسجد، يصنع فيه الطعام لكل من يأتي إليه من المصلين وطلاب العلم والفقراء [3]. ويذكر ابن بطوطة مسجدا جامعا آخر في مدينة ده فتن (فالارباتنام في شمال كننور)، ويصفه بأن له "أدراج ينزل منها إليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون"، كما أنه عند حديثه عن بد فتن (داراماباتنام) يقول إنه بالرغم من عدم وجود مسلمين بهذه المدينة إلا أنه يوجد بها مسجد قريبا من البحر، "يأوي إليه غرباء المسلمين". وعند ذكره لمدينة فندرينا (بنتالاياني) يشير إلى وجود عدد كبير من المسلمين بها، وأنهم كانوا موزعين على ثلاث مناطق، في كل واحدة منها كانوا يمتلكون مسجدا، والجامع بها يقع على الساحل "وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر". ويسجل لنا ابن بطوطة كذلك مسجدا في مدينة كولم [4]. ولما زار المبعوث عبد الرزاق مدينة كاليكوت وجد بها مسجدين [5].

أما مسجد مخدوم في فنان- الذي يعود تاريخ إنشائه إلى عام ٩٢٥هـــــ/١٥١٩م- فيعد أحد أكثر المساجد شهرة على ساحل مليبار، وقد قام ببنائه الشيخ زين الدين بن علي المعبري (ت ٩٢٨هـــــ/١٥٢٢م)، كما أنه شيد بجانبه زاوية يأوي إليها العلماء وطلاب العلم القادمين من مصر والحجاز وبلاد ومدن جنوب شرق آسيا. وبصفة عامة تعد فنان واحدة من أهم مدن مسلمي مابيلا، التي وصلت إليها الثقافة الإسلامية مبكرا بفضل ارتباطها القديم بالعرب المسلمين [6].

١تحفة المجاهدين، ص ٢٢٧-٢٢٨.

٢الرحلة، ٣٩/٤.

٣الرحلة، ٤١/٤.

٤الرحلة، ٤٢/٤-٤٤، ٤٩.

٥ R. Miller, Mappila Muslims of Kerala, p. ٥٧.

٦أحمد زين الدين المعبري، تحفة المجاهدين، ص ٦-٧؛

R. Miller, Mappila Muslim Culture, p. ٢٩٣; K. M. Mohamed, Op. cit., p. ٢٣٠.

وتعد المدارس من أهم دور العلم التي ساعدت على نشر الثقافة الإسلامية بين أبناء مابيلا؛ ومن أشهر تلك المؤسسات التي وصلنا ذكرها مدرسة فنان، التي يعود الفضل في تأسيسها إلى الشيخ زين الدين المعبري. وبفضل جهود هذا الشيخ وحفيده العالم الشيخ أحمد زين الدين (ت ٩٨٧هـــــ/١٥٧٩م)- الملقبان بالمخدومين الكبير والصغير- حققت هذه المدرسة شهرة كبيرة. والواقع إن عائلة مخدوم فنان كانت تحتل مكانة متميزة بين العلماء العرب في مليبار؛ فهم مشهورون بسعة الاطلاع والتقوى والتفاني والالتزام بقضية المعرفة. وبصفة عامة كانت المناهج التي يقوم بتدريسها هؤلاء العلماء مبسطة ومركزة، وهي تشتمل على دروس في قواعد اللغة العربية والتفسير القرآني والحديث والأخلاق والتصوف. وبعد إتمام تلك الدروس، يتم تكريم المتفوقين من الدارسين، الذين يصبحون مؤهلين لمساعدة الطلاب الآخرين [١].

أما على مستوى الكتابات والمؤلفات الأدبية، فإن التجار العرب القادمين إلى الساحل لم يكن متوقعا أن يكون الجانب الأدبي في طليعة اهتماماتهم، وإنما كانت التجارة ومعاملاتها هي التي تمثل الأولوية بالنسبة لهم؛ لذلك من الطبيعي أن تكون كتاباتهم قد ركزت على بيانات وسندات شحن السلع والبضائع. ثم في فترة لاحقة بدأت تظهر بين مسلمي مابيلا ميول للكتابات الأدبية والدينية التي جاءت مركزة على الجوانب الشرعية، ولعل أقدم عمل قد وصل خلال هذه الفترة يعود إلى عام ٧٤٢هـــــ/١٣٤٢م، وهو كتاب "القيد الجامع" المنسوب لفقيه حسين من مدينة داراماباتنام في شمال مليبار. وهذا الكتاب عبارة عن عرض للأمور والقواعد الشرعية المتعلقة بالزواج [٢].

لكن المؤلفات العربية الأكثر شهرة جاءت بعد أكثر من قرن، وأنتجتها عائلة زين الدين المعبري- مخدوم فنان- لتلبية الاحتياجات الدينية لمجتمع مابيلا. وعائلة زين الدين مخدوم ربما تعود أصولهم الأولى إلى بلاد اليمن، ثم هاجروا إلى المنطقة الساحلية الجنوبية الشرقية للهند المعروفة لدى الجغرافيين العرب باسم المعبر، ومن هناك شقوا طريقهم إلى فنان في جنوب مليبار. والشيخ زين الدين بن الشيخ علي كان له دور كبير في الشهرة التي وصلت إليها فنان؛ فقد قام بتأليف العديد من الكتب والرسائل الدينية باللغة العربية، منها تحفة الأحبة وإرشاد القاصدين ومرشد الطلاب

---

١ R. Miller, Op. cit., p. ٨٨-٨٩; K. M. Mohamed, Op. cit., p. ٢٣٠-٢٣١.

٢ R. Miller, Op. cit., p. ٣٢١.

(ذو النزعة الصوفية)، كما ألف قصيدة في الأخلاق أسماها "هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء". وكان ابنه الشيخ محمد الغزالي- ويسمى كذلك الشيخ عبد العزيز- فقيها ومتكلما وأديبا كبيرا، كما كان يعد في زمانه من أشهر علماء مليبار في الحديث والتفسير. أما حفيده الشيخ أحمد زين الدين فيعد أشهر أفراد هذه العائلة المرموقة، وقد قام بتأليف العديد من المصنفات، منها "فتح المعين بشرح قرة العين"، وهو كتاب تعليم متعلق بالشريعة، و"إرشاد العباد إلى سبيل الرشاد" وهو كتاب في التصوف، بينما يعد كتابه "تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين" هو أشهر أعماله، وفيه حث وتشجيع لمحاربي مابيلا على الجهاد والتصدي للبرتغاليين؛ حيث يقول في مقدمته "فجمعت هذا المجموع ترغيبا لأهل الإيمان في جهاد عبدة الصلبان، فإن جهادهم فرض عين لدخولهم بلاد المسلمين" [١].

ويمكننا كذلك في هذا السياق الإشارة إلى إحدى الأسر العلمية الشهيرة بكاليكوت التي كان يلقب أفرادها "بالقاضي"؛ وقد قامت هذه الأسرة بنشر المعرفة بين مسلمي مابيلا، كما أنها ساهمت في تطوير اللغة العربية وآدابها. ومن أشهر علمائها القاضي زين الدين رمضان بن القاضي موسى الشلياتي (ت ٨٩٩هـ/١٤٩٤م)، الذي ألف كتاب "عمدة الأصحاب ونزهة الأحباب"، وهو عمل يتكون من أربعة فصول، تشتمل على العقيدة والفلسفة والصلاة والأدعية وغيرها من الموضوعات الدينية [٢].

٥. دور مسلمي مابيلا في التصدي للبرتغاليين

أثناء حديثه عن وصول البرتغاليين لمنطقة المحيط الهندي، والأهداف التي كانوا يسعون لتحقيقها من وراء هذا المشروع الكبير، ومدى التغيرات التي طرأت على المنطقة بصفة عامة وعلى مسلمي مابيلا بصفة خاصة، يقول ميلر "كان قدوم البرتغاليين من أقل الأحداث إثارة للدهشة، ولكن الأكثر صدمة في تاريخ مابيلا. لم يكن البرتغاليون هم أول أوروبيين يزورون ولاية كيرالا (مليبار) لكن قدومهم هذا كان مجيئا مختلفا؛ فقد كانوا بمثابة رأس الحربة للتقدم والتوسع الغربي الذي غير تاريخ آسيا" [٣]. ويمكن كذلك اعتبار التنافس البرتغالي مع مجتمع مابيلا المسلم في مليبار امتدادا أيديولوجيا للفكر الأوربي الهادف إلى القضاء على المسلمين ثقافيا واقتصاديا

١زين الدين المعبري، المصدر السابق، ص ٧-١٦، ٢٠، ١٩٦؛

R. Miller, Op. cit., p. ٣٢١-٣٢٢.

٢ K. M. Mohamed, Op. cit., p. ٢٣٢.

٣ R. Miller, Mappila Muslims of Kerala, p. ٦٠.

وعسكريا، كجزء من حلقات الحروب الصليبية ما بين الشرق والغرب؛ ففي مليبار كانت فكرة البرتغاليين والهدف الأول لهم هو استئصال تجارة المسلمين والقضاء عليهم تماما، وفي هذا السياق يقول بانيكار أن "هذا لم يكن فقط بسبب التنافس التجاري، ولكن بسبب العداء الذي ورثته القوى الإيبيرية من قتالهم الطويل الأمد مع المسلمين في إسبانيا وإفريقيا" [١].

مهما يكن من أمر، فقد تسبب وصول البرتغاليين في حدوث حالة من الذعر لجميع مسلمي كاليكوت، وخاصة العرب الذين اعتبروا هذا التطور يمثل تهديدا خطيرا لمصالحهم التجارية على الساحل الهندي. ويبدو أنه في بداية الأمر كان هناك انقسام في صفوف المسلمين حول طريقة التعامل مع البرتغاليين؛ فهناك حزب يهيمن عليه العرب بقيادة كويا قاسم Koya Kassim، وهناك حزب آخر لمسلمي مابيلا بقيادة كويا باكي Koya Pakki "أحد أغنى مسلمي كاليكوت". ويبدو أن باكي كان يميل إلى التريث والانتظار والترقب قبل اتخاذ أي موقف تجاه البرتغاليين، بينما كان كويا قاسم يدرك مدى خطورة الأمر، وأنه لابد من التصدي لهؤلاء الأوربيين بكل حزم وقوة منذ البداية. على أية حال كان هذا الاختلاف في وجهات النظر أمرا مؤقتا، وسرعان ما تجمع الفريقان تحت راية التحرك والتصدي لفاسكو وأسطوله، "وهو الأمر الذي معه بدأت حقبة من التنافس التجاري والعداء الديني ما بين الفريقين" [٢].

حاول المسلمون منع نجاح التقارب ما بين زامورين والبرتغاليين؛ فلجأوا إلى محاولة التأثير على وزراء هذا الحاكم باستخدام الطريقة التقليدية وهي منحهم الهدايا والأموال. كما أنهم حذروا الزامورين من خطورة الدخول في صداقة مع البرتغاليين الذين أتوا لإزالة دولته بالكلية؛ فهم معروفون بغدرهم وطمعهم. كما أن التجار المسلمين من باب اقناع الزامورين بالوقوف إلى جانبهم عرضوا عليه أن يعوضوه عن كل الأموال التي كان يمكن أن يتحصل عليها من خلال تحالفه مع البرتغاليين، والدخول معهم في علاقات تجارية [٣].

جدير بالذكر أن المحاولات الأولية التي قام بها البرتغاليون للسيطرة على تجارة التوابل على ساحل مليبار لم تكن تتعارض مع مصالح تجار مابيلا المسلمين،

---

١ K.M. Panikkar, A History of Kerala, ١٤٩٨-١٨٠١, Annamalai University, Annamalainagar, ١٩٦٠, p. ١٥٩.

٢ R. Miller, Op. cit., p. ٦٣; G. Bouchon, Vasco de Gama, Fayard, ١٩٩٧, p. ٢٢٧, ٢٣١.

٣ Voyages de Vasco de Gama:" relations des expéditions de ١٤٩٧-١٤٩٩ et ١٥٠٢-١٥٠٣", Traduit et Annoté par Paul Teyssier et Paul Valentin, Présenté par Jean Aubin, éd. Chandeigne, Paris, ١٩٩٥, p. ١٤٩-١٥٠; R. Miller, Op. cit., p. ٦٣.

الذين كانوا يسيطرون على شبكات التجارة المحلية والساحلية. فقد كان البرتغاليون منذ الوهلة الأولى يفرقون ويميزون بين mouros da terra (المسلمون المحليون) وبين mouros da mecca (المسلمون القادمون من مكة والمنطقة العربية)، وقد كان "تجار مكة" هم الذين تم تحديدهم على أنهم أعداؤهم التجاريون، ومن ثم أصبحوا هدفا لهجمات أساطيلهم. ونتيجة لهذه التطورات فقد حدث تغيير تدريجي في تكوين عالم التجارة البحرية في مليبار، خاصة بعد تراجع الدور القيادي للتجار العرب وتجار الكجرات، ثم انسحابهم مع مرور الوقت من تجارة تلك المنطقة. وقد كان المستفيد من هذه التغيرات هم تجار مابيلا المسلمون، الذين أصبح لهم من الآن فصاعدا سطوة ونفوذ كبير على تجارة الساحل الهندي؛ فقد انتقلوا من كونهم تجارا ساحليين إلى تجار يقطعون مسافات طويلة عبر معظم سواحل المحيط الهندي، وبصفة خاصة موانئ البحر الأحمر. من ناحية أخرى، اعتمد البرتغاليون في هذا الدور على تجار مابيلا كي يكونوا وسطاء بينهم وبين المناطق الداخلية النائية والبعيدة عن متناول يدهم لتزويد سفنهم التجارية بالتوابل، كما أن هؤلاء التجار كانوا يزودون البرتغاليين بما يحتاجون إليه من مؤن غذائية. بل إن حصول البرتغاليين على شحنات توابل جنوب شرق آسيا- في الفترة الأولى من وصولهم للساحل- كان يتم من خلال "تجار مابيلا الكبار" في كوشين. في كل الأحوال، وجد تجار مابيلا في هذا الأمر فرصة لتحقيق أهدافهم بالسيطرة على أسواق التوابل الداخلية في منطقة مليبار، ثم بدأوا تدريجيا في توسيع مناطق نفوذهم للسيطرة على تجارة التوابل الإقليمية. ومن ثم، فيمكن القول إن السنوات الأولى من الوجود البرتغالي في مليبار شهدت علاقات ودية إلى حد ما بين الطرفين، خاصة وأن الاستفادة كانت محققة للجانبين [١].

مهما يكن من أمر، فإن تلك العلاقات الودية لم تستمر طويلا، وما لبث أن ظهر العداء والصراع ما بين الطرفين؛ فقد نظر البرتغاليون بعين الشك والريبة لتجار مابيلا الذين بدأت تكون لهم اليد الطولى في تجارة المحيط، كما ساعدت اتصالاتهم التجارية في تطوير وازدهار التجارة الخارجية في المناطق الساحلية المختلفة لمملكة مليبار، وهو أمر لا يتماشى مع السياسة البرتغالية الهادفة إلى فرض سيطرتها على

---

١ Sanjay Subrahmanyam, The Portuguese Empire in Asia, ١٥٠٠-١٧٠٠, A Political and Economic History, John Wiley and Sons Ltd, West Sussex, ٢٠١٢, p. ٩٨; J. Mailaparambil, Op. cit., p. ٦٥-٦٦; Pius Malekandathil, “Criminality and Legitimization in Seawaters: A Study on the Pirates of Malabar during the Age of European Commercial Expansion (١٥٠٠-١٨٠٠)”, in Fluxos and Riscos, N. ١, ٢٠١٠, p. ٦٠, ٦٢.

جميع منافذ تجارة المحيط، بما فيها ساحل مليبار الغني بتوابله. ولكسر احتكار هؤلاء المسلمين للتجارة في المنطقة، أعطت الحكومة البرتغالية تعليمات لنواب الملك وللقادة بتشجيع التجار الهندوس والمسيحيين على إلحاق الأضرار بمصالح التجار المسلمين [١]. من جانب آخر، أجبر الضغط والنمو المتزايد لفئة التجار البرتغاليين الذين يعملون لحسابهم الخاص بعيدا عن القوافل التجارية الحكومية (الذين يسمون casados) في كشي تجار مابيلا المحليين على ترك هذه المدينة والاتجاه ناحية كاليكوت، وهذه الحادثة كان لها نتائجها المهمة؛ فهي تمثل بداية موجة جديدة من النضال ضد البرتغاليين في مليبار [٢].

في الحقيقة، منذ وصوله إلى الساحل ومن أجل تحقيق هدفهم، فإن فاسكو دي جاما أصر في مراسلاته مع الزامورين على طرد جميع المسلمين من المدينة، وهو الأمر الذي رفض الملك القيام به- رغم الترحيب الذي قابل به فاسكو في البداية [٣]-؛ مبينا له أنه يوجد ببلاده أكثر من أربعة آلاف أسرة من هؤلاء التجار المسلمين، وأنهم يعيشون في بلاده منذ زمن بعيد تماما كأهل البلاد الأصليين وليس كأجانب، وبفضلهم تمكنت مملكته من تحقيق الأرباح والأموال الطائلة [٤]. هذا الرد من جانب الزامورين كان يعني بدء شرارة حرب استمرت لفترة طويلة ما بينه وحلفائه المسلمين من جهة، والبرتغاليين وحلفائهم من أمراء مليبار- وفي مقدمتهم حاكم كشي- من جهة أخرى. والواقع أن الزامورين كان جيشه يتكون من الناير، الذين عرفوا بقوتهم وشدة بأسهم في الحروب، حتى أنه كان يقال "إنهم لا يقهرون أبدا على الأرض". أما على مستوى القوة البحرية فقد سطع نجم مسلمي مابيلا، الذين كانوا يقودون الأسطول الحربي للملك، وقد كان محاربو مابيلا كذلك من القوة بمكان، بحيث إنه "كان من الصعوبة إلحاق الهزيمة بهم" [٥].

مهما يكن من أمر، فإن هذا الرد من الزامورين أغضب فاسكو، ومن ثم قام الأسطول البرتغالي في شهر ربيع الأول ٩٠٤هـــــــ/نوفمبر ١٤٩٨م بقصف المدينة. ويبدو أن الرد الانتقامي لزامورين لم يكن ذا نتيجة كبيرة، فقد جاءت طلقات بنادقهم

---

١ K. Liji, "The Portuguese Cartaz System and the Maritime Trade of Kollam", in IJRAR, Volume ١, Issue ٢, May ٢٠١٤, p. ١٢٢.

٢ J. Mailaparambil, Op. cit., p. ٦٦; Sanjay Subrahmanyam, Op. cit., p. ٩٨; Pius Malekandathil, Op. cit., p. ٦١.

٣ Voyages de Vasco de Gama, ١٢٧.

٤ Gaspar Correa, Op. cit., p. ٣٢٨; Voyages de Vasco de Gama, p. ٢٤٢, ٣٢٢;

زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٤٧.

٥ K.M. Panikkar, Malabar and the Portuguese, p. ٦٧; O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٧٤.

ضعيفة "مثل قطع الأواني الفخارية". وأثناء مكوث القائد البرتغالي أما سواحل المدينة ظهر أسطول مكون من ٢٤ سفينة كلها محملة بالأرز؛ فتم الاستيلاء عليها بأكملها مع طاقمها البالغ عددهم ٨٠٠ شخص، ثم من باب بث الرعب في نفوس الملك وسكان كاليكوت والمسلمين أمر فاسكو رجاله بقطع أيدي وآذان وأنوف هؤلاء الأسرى، وربطت أقدامهم ببعضها البعض، "ولمنعهم من فك الحبال بأسنانهم، أمر رجاله بضربهم على أفواههم"، ثم تم وضعهم على ظهر السفينة، ووضع أحدهم فوق الآخر، وتم تغطيتهم بالحصير والأوراق الجافة، ووضعت الأشرعة على الشاطئ، وأشعلت النيران في السفن. ومعلقا على تلك المذبحة التي أجراها يقول فاسكو دي جاما: "لقد أساءت كاليكوت إلينا كثيرا، وتستحق أن نفعل ذلك معها مرة أخرى إذا ما تعرضنا لأي ضرر أو إهانة" [١].

ويبدو أن القوة التي لجأ إليها البرتغاليون منذ وصولهم إلى الساحل وتسارع وتيرة الأحداث قد أثارت الرعب والارتباك لدى الزامورين وحلفائه مسلمي مابيلا والتجار العرب. وقد بدا هذا الذعر جليا في مدينة بنتالاياني كولم Pantalayani Kollam؛ حيث استقل الفا (٢٠٠٠) شخص من التجار المسلمين سبع عشرة سفينة من أجل مغادرة الساحل باتجاه بلدانهم، "غير عابئين بالخسائر التجارية الكبيرة التي سيتكبدونها". بيد أن الأسطول البرتغالي بقيادة لوبو سواريز نجح في أسر تلك السفن، وقتل جميع التجار العرب. هذه الحادثة لا شك كانت لها تأثيراتها السلبية على الزامورين ومابيلا، "الذين لم يكن لديهم خيار الفرار"، وبدأوا يستعدون لشن حرب متواصلة ضد البرتغاليين [٢]. وقد أراد الزامورين أن يوجه ضربة ضد حاكم كشي– الذي كان حليفا للبرتغاليين–، لذلك انتهز فرصة رحيل معظم سفن الأسطول البرتغالي– الذي لم يتبق منه سوى ثلاث سفن– وقام عام ٩٠٩هـــــــ/١٥٠٣–١٥٠٤م بتوجيه حملة كبيرة مكونة من خمسين ألف جندي من الناير (يذكر زين الدين أن عددهم بلغ مائة ألف إلى جانب جمع كبير من المسلمين) ضد هذه المدينة. بيد أن هذه الحملة لم تحقق نجاحا، وتعرض جنوده للهزيمة. من ناحية أخرى عانى البحارة المسلمون من هزائم متتالية قبالة كنور، وقتل منهم في إحدى تلك المعارك– التي وقعت عام

١ Gaspar Correa, Op. cit., p. ٣١٤; O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٦٩.

٢ R. Miller, Op. cit., p. ٦٦–٦٧.

٩١٢هـــــــ/١٥٠٦م- ثلاثة آلاف مسلم، وقد أدى كل ذلك إلى منح البرتغاليين سيطرة كاملة على ساحل مليبار [١].

وفي ذلك الوقت بدأ يظهر للوجود تحالف قوي جمع بين زامورين كاليكوت مع سلطان مصر قانصوه الغوري [٢]- الذي أبدى موافقته على هذا التحالف بعد مراسلة المركار والتجار المسلمين له لاتخاذ رد فعل قوي تجاه ما يجري على الساحل الهندي، وبعد أن شعر كذلك السلطان بالأضرار التي بدأت تلحق بتجارته منذ وصول البرتغاليين وقيامهم بمحاولة السيطرة على تجارة الهند. كما انضم لهذا التحالف سلطان الكجرات المسلم سيف الدين محمود شاه الأول [٣]، الذي كان يشعر بالقلق من تهديدات الأسطول البرتغالي، الذي لم يتوقف عن تخريب المدن الساحلية الكجراتية، ومهاجمة السفن التجارية لرعاياه، لذلك فإنه كلف واليه في مدينة ديو- مالك إياز- بحراسة السواحل والانضمام إلى الأسطول المصري. وبدأ هؤلاء الحكام في الإعداد لأسطول بحري لمواجهة البرتغاليين، بيد أن هذا المشروع- بعد انتصار جزئي في معركة شول (شيول) عام ٩١٣هـــــــ/١٥٠٨م- عرف فشلا ذريعا بعد أن ألحق بهم القائد البرتغالي ألميدا هزيمة قاسية في معركة ديو البحرية في شوال ٩١٤هـــــــ/فبراير ١٥٠٩م. وقد كان لخيانة حاكم ديو- مالك إياز- الذي تحالف مع القوات البرتغالية دور كبير في إضعاف القوات الهندية والمصرية [٤].

---

١ R. Miller, Op. cit., p. ٦٧; زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٤٩-٢٥٣

٢هو السلطان قانصوه بن عبد الله الظاهري (نسبة إلى الظاهر خشقدم) الأشرفي (نسبة إلى الأشرف قايتباي) الغوري أبو النصر (٨٥٠-٩٢٢هــــ/١٤٤٦-١٥١٦م)، من سلاطين مصر الجراكسة. خدم السلاطين وتولى منصب حجابة الحجاب بحلب قبل أن يبايع بالسلطنة بقلعة الجبل سنة ٩٠٥هــــ. قام ببناء العديد من المنشآت والآثار، وكان ملما بالموسيقى والأدب. عرف بشجاعته ودهائه وفطنته. وقد كانت نهايته على يد السلطان العثماني سليم الأول، الذي ألحق به الهزيمة في معركة مرج دابق بالشام، ويقال إنه مات قهرا من تلك الهزيمة. أنظر: خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ٥/١٨٧.

٣هو السلطان فتح خان محمود شاه بن محمد شاه بن أحمد شاه، جلس على كرسي الحكم في الكجرات بمشورة الأمراء وذلك في غرة شعبان عام ٨٦٣هـــ/١٤٥٨م. لقب بمحمود بيكرو، وكلمة بيكرو تتكون من كلمتين (بي) وتعني اثنين، و(كرو) وتعني قلعة، أي صاحب القلعتين، وذلك لأنه اشتهر بفتحه لقلعتين من أمنع القلاع هما جيرنار وشاميانير. اهتم السلطان محمود بالجيش وبتدريباته، واستطاع أن يمتلك في وقت قصير قوة كبيرة في العدد والعتاد. وقد وقعت عدة حروب ما بين محمود شاه وبين السلطان محمود خلجي، وذلك بسبب رغبة هذا الأخير في التعدي على أملاك نظام شاه بن همايون والي الدكن، فأرسل إليه السلطان محمود يوبخه على أفعاله ذاكرا له "أن الهجوم على بلاد المسلمين دون وجه حق بعيد عن قواعد الإسلام والمروءة". كما عرف عن السلطان محمود جهوده الكبيرة في نشر الإسلام في المناطق الوثنية التي كانت تخضع للراجبوت، والتي كانت تمثل قلقا كبيرا للمسلمين. من ذلك قيامه عام ٨٧١هـــ بفتح قلعة كرنال بعد قتال شديد مع الراجبوت. كما أنه تمكن في عام ٨٧٤هـــ من محاصرة قلعة جوناكره والاستيلاء عليها. فضلا عن أنه أثناء مروره ببلاد سورت قام بتخريبها، ورغم أن حاكمها عرض عليه الأموال مقابل رحيله، إلا أنه قال "إنني أهتم بأن تدخل هذه الولاية تحت سيطرتي، وأرفع أعلام الإسلام حتى ينتشر شعار الإسلام". وكانت وفاة محمود شاه في شهر رمضان عام ٩١٧هـــ/١٥١١م. وقد اشتهر محمود شاه بكرمه وحلمه وشجاعته وورعه. أنظر: نظام الدين أحمد بخشي الهروي، المسلمون في الهند من الفتح العربي إلى الاستعمار البريطاني، (ترجمه عن الفارسية) أحمد عبد القادر الشاذلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، ٣/ ٩٠-١١٠؛ عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، دار العهد الجديد للطباعة، القاهرة، ١٩٥٩، ص ١٥٤-١٥٦.

٤ K. Panikkar, Op. cit., ٦٩-٧١; J. Aubin, “Albuquerque et les négociations de Cambaye”, in Etudes et documents sur l’histoire de l’océan Indien et des pays riverains à l’époque de la domination portugaise, Tom. I, Genève, ١٩٧١, p. ٣-٦٣, p. ٥, ١٢; G. Bouchon, Albuquerque, le lion des mers d’Asie, Paris, ١٩٩٢, p. ١٠١, ١٤٩; G. Bouchon, “Les nouveaux venus: les Portugais” in Histoire de l’Inde moderne (١٤٨٠-١٩٥٠), sous la direction de C. Markovits, Fayard, ١٩٩٤, p. ٧٧
زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٥٠؛ عبد المنعم النمر، المرجع السابق، ص ١٥٦.

من ناحية أخرى يذكر الشيخ زين الدين المليباري أن البرتغاليين هاجموا فنان وأضرموا النار في خمسين سفينة كانت راسية في ميناء المدينة، كما أنهم قاموا بقتل سبعين مسلما. ومن هناك اتجه البرتغاليون نحو جوا، وبمساعدة من تيموجا Timoja (أحد القراصنة الهندوس المتحالفين مع البرتغاليين)، تمكن حاكم فيجاياناجار من مهاجمتها والاستيلاء عليها [١]. ورغم أن السلطان عادل شاه [٢] حاكم بيجابور تمكن من استراد المدينة وطرد البرتغاليين منها، إلا أن البوكيرك بعد معركة ضارية نجح في الاستيلاء عليها مرة أخرى في جمادى الآخرة ٩١٦هـــــ/أكتوبر ١٥١٠م وقام بتحصينها [٣]. ولا شك أن سقوط جوا– ذات الموقع الاستراتيجي– في يد البرتغاليين قد قضى على الأمل الأخير في وصول المساعدة لمسلمي مابيلا من منطقة الدكن [٤].

مهما يكن من أمر، فإن السلطة في كاليكوت يبدو أنها كانت قد أيقنت بصعوبة استمرار المواجهة مع البرتغاليين نظرا لتفوقهم في القوة العسكرية، كما أنه "رأى أن المصلحة صلحهم لتحصل لرعاياه المسلمين التجارة كما حصلت لأهل كشي وكننور ويزول ضعفهم وفقرهم" [٥]. لذلك فقد أقدم الزامورين الجديد في ١٦ شوال ٩١٩هـــــ/٢٤ ديسمبر ١٥١٣م على الدخول في معاهدة صلح مع القائد البرتغالي دوم غراسيا دي نورونها Dom Gracia de Noronha، والتي بموجبها حصل البرتغاليون على إذن ببناء حصن بالقرب من كاليكوت، كما سمح لرعايا الزامورين– من تجار مابيلا المسلمين– بالرحلة في أربع سفن إلى موانئ جدة وعدن، بعد التزود بالتصاريح الصادرة من البرتغاليين. ولا شك أن تلك المعاهدة قد أضعفت استراتيجيا من قوة ونفوذ حاكم كاليكوت، كما أنها قوبلت باستياء كبير خاصة من التجار المسلمين

١كانت جوا مملوكة لسلاطين بيجابور المسلمين منذ عام ١٤٧١م، لكنها كانت في السابق جزءا من إمارة فيجاياناجار، وكان جزء كبير من سكانها ينتمون للهندوس. وهناك بعض الأدلة التي تشير إلى أن القائد البرتغالي ألفونسو البوكيرك عندما أقدم على الاستيلاء عليها كان ذلك بحث ونصيحة من Timoja، وهو قرصان هندوسي من كانارا كان مرتبطا بمصالح مع حكام فيجاياناجار. فقد أخبر تيموجا البوكيرك أن هذه المدينة من السهولة بمكان الاستيلاء عليها، نظرا لأن حاكمها– وهو ابن السلطان عادل شاه– كان مشغولا بمحاربة أعدائه على الحدود، وترك المدينة بلا حماية. وإن تأخر البرتغاليون في بدء هجومهم فإن قوات المماليك ستسيطر عليها. ولا شك أن كلمات هذا القرصان قد اقنعت البوكيرك بضرورة اخضاع جوا لنفوذه. أنظر:

G. Bouchon, Op. cit., p. ١٥٨; A. R. Disney, A History of Portugal and the Portuguese Empire (From beginning to ١٨٠٧, Vol. ٢: The Portuguese Empire), Cambridge University Press, ٢٠٠٩, p. ١٣٠.

٢هو السلطان عادل شاه علي، ويعد السلطان الخامس في الأسرة "العادل شاهية" التي تمكنت من الوصول للحكم على أنقاض الدولة البهمنية ومؤسسها هو يوسف عادل شاه سنة ٨٩٥هـــ/١٤٨٩م، وكان السلطان علي من الشجعان وأهل الرأي والعزم، وقد أشاد زين الدين كثيرا بجهاد السلطان علي ضد البرتغاليين، وأهدى إليه كتابه "تحفة المجاهدين". وقد تقلد علي الحكم عام ٩٦٥هـــ بعد وفاة سلفه إبراهيم الأول بن إسماعيل عادل شاه، وكانت وفاته عام ٩٨٨هـــ. أنظر: زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٥–٢٦.

٣ تحفة المجاهدين، ص ٢٦١؛ O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٧٨

٤ R. Miller, Op. cit., p. ٦٧.

٥زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٦٤.

الأجانب، الذين كانت تعني بنود تلك الاتفاقية بالنسبة لهم خروجهم بشكل نهائي من تجارة ساحل مليبار [١]. من جهتهم، وبعد أن أتموا التحصينات وبنوا القلعة، بدأ البرتغاليون في انتهاك بنود المعاهدة؛ فقد منعوا السفن الهندية المحملة بالزنجبيل والفلفل من التوجه إلى السواحل العربية، وقاموا هم باحتكار هذه التجارة، "حتى إذا رأوا شيئا منهما- أي الزنجبيل والفلفل- في مركب أخذوه مع ما فيه من الأموال والنفوس". كما أنهم حاولوا التخلص من الزامورين، وذلك بدعوته إلى الحصن بحجة تقديم هدية ثمينة له، ولم يخلصه من تلك المؤامرة إلا بعض الجنود البرتغاليين الذين أعطوا إشارة الخطر للزامورين، "فخرج من بينهم باسم قضاء الحاجة الإنسانية حتى بعد عنهم وتخلص من مكرهم بإذن الله". وقد انتهت هذه المعاهدة "المذلة" بوفاة الزامورين الذي أبرمها، وذلك عام ٩٢٨هـ/١٥٢٢م [٢].

أدت المحاولة البرتغالية الفاشلة للتخلص من الزامورين إلى إعادة فتح باب العداء بين كاليكوت والبرتغاليين. كما اتخذ مسلمو فندارينا (كنور) موقفا عدائيا من البرتغاليين، وكللت تلك الجهود عام ٩٣٠هـ/١٥٢٣م بعملية مشتركة ما بين مسلمي مابيلا في عدة مدن، مثل جمنبا وترونكاد وبربورا وعدة أماكن أخرى، وقد نجحوا في الاستيلاء على عشر من السفن البرتغالية الصغيرة "الخارجة للتجارة". كما أنه في العام التالي اندلعت حرب أهلية بين اليهود والمسلمين في كدنكلور، نتيجة لقتل أحد المسلمين على يد اليهود، "فأرسلوا إلى مسلمي سائر البلدان لإعانتهم وأخذ الثأر منهم"، وبذل جهد مشترك من قبل مسلمي مابيلا كاليكوت والمدن المجاورة، الذين ساروا بأسطول مكون من حوالي مائة سفينة صغيرة إلى كدنكلور، وقاموا بطرد اليهود والمسيحيين الذين أظهروا التمرد، "بعد أن أحرق المسلمون بيوتهم وكنائسهم". كما أنه في العام نفسه اتفق مسلمو درمفتن وكننور وترونكاد وهيلي وجمنبا غيرها من المدن على التصدي للبرتغاليين ومحاربتهم [٣].

حادثة أخرى تظهر لنا دور مسلمي مابيلا في التصدي للبرتغاليين؛ ففي عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م قامت قوات الزامورين المشكلة من الجنود المسلمين والناير بمهاجمة قلعة البرتغاليين في المدينة، وهو الأمر الذي دفع حاميتها بقيادة جواو دي ليما

١ O.K. Nambiar, Portuguese Pirates and Indian Seamen, Bangalore, ١٩٥٥, pp.٩١-٩٢; O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٧٩.

٢زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٦٤-٢٦٥.

٣زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٦٦-٢٦٨.

إلى محاولة الصمود في وجه المهاجمين، لكنهم اضطروا للفرار باتجاه البحر بعدما نفدت مؤنهم، ثم قام جنود مابيلا والناير بتدمير الحصن. وعن تلك الواقعة يقول زين الدين المليباري "ووصل إليها- أي إلى كاليكوت- المسلمون للجهاد في سبيل الله من بلدان كثيرة" [١]. والواقع إن البرتغاليين بسيطرتهم على البحر وتتبعهم لسفن التجار المسلمين ألحق كثيرا من الأضرار بتجارة وموارد مسلمي مابيلا؛ فقد أصر البرتغاليون في علاقاتهم التجارية مع ملوك وحكام مليبار على أن تجارة التوابل يجب أن تكون حكرا عليهم فحسب، وأن هناك تصاريح كان يمنحها القادة البرتغاليون للسفن الراغبة في الإبحار في مياه المحيط، وفي حالة عدم حصول أي سفينة على هذا التصريح فإن البرتغاليين كانوا يستولون عليها وعلى طاقمها وحمولتها. هذا الأمر لم يترك أمام مسلمي مليبار من خيار سوى التصدي لهؤلاء المستعمرين؛ لذلك فقد نادوا بالحرب المقدسة والجهاد ضدهم، وكانت الرغبة في الشهادة دافعة لهم لإظهار صور الجرأة والشجاعة في تلك الحرب [٢].

من ناحية أخرى، حاول رجال مابيلا طلب المساعدة من الخارج؛ فقد كان لديهم ميزة وهي استقرار العديد من أبناء الجاليات المسلمة الأجنبية في كاليكوت؛ فهناك التجار والبحارة المسلمون الهنود من الكجرات وكورومونْدال والبنغال، إلى جانب الكثير من شعوب الطائفة الهندوسية في الهند الذين كانوا قد تحولوا إلى الإسلام بحلول القرن ٨هـ/١٤م. وبطبيعة الحال كانت هذه المجتمعات- كما هو الحال في مليبار- حريصة أيضا على التخلص من خطر البرتغاليين، نظرا للإضرار والخسائر التي لحقت بهم [٣]. بل إن البعض منهم كان يعتقد أنه بوصول أخبار هذه الحرب المقدسة إلى البلدان الإسلامية في العراق وبلاد الشام ومصر فإنهم كانوا سيفكرون في الانضمام إلى إخوتهم مسلمي الهند [٤].

والواقع أن مسلمي مابيلا كانوا يقاتلون البرتغاليين بشجاعة كما لاحظ البوكيرك بنفسه هذا الأمر قائلا "إنهم يقاتلون أفضل من أي شخص آخر رأيته على الإطلاق". لكن في مواجهة مثل هذا العدو كانت هناك حاجة ملحة إلى مزيد من الخبرات والقدرات؛ فلم يكن لرجال مابيلا أي تقاليد عسكرية سابقة، "فهم كانوا بحارة

---

١ تحفة المجاهدين، ص ٢٦٨-٢٦٩؛ O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٨١

٢ K. Liji, Op. cit., p. ١٢٢; O. Salahudheen, Op. cit., p. ٧٤.

٣ C. Boxer, The Portuguese Seaborne Empire ١٤١٥-١٨٢٥, London, ١٩٦٩, p. ٤٥; O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٧٥-٧٦.

٤ O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٧٦.

وتجار جيدين لكنهم يفتقرون إلى الخبرة والاستعداد للمعارك الحربية الضارية ضد عدو قد تمرس عليها كثيرا"، فضلا عن ضعف أسلحتهم مقارنة بما كان يمتلكه الجنود البرتغاليون من أسلحة نارية ومدافع. من ناحية أخرى فإن مسلمي مابيلا كانوا يفتقدون لقيادة قوية ذات حنكة ومهارة يستطيعون أن يصطفوا خلفها، وقد استمر هذا الأمر حتى ظهور القائد كونجالي (كونهالي) مركار Kunjali (Konhali) Marakkar. فضلا عن ذلك، لم يكن لهؤلاء المسلمين أراض أو أقاليم خاصة بهم، باستثناء إقليم علي رجا Ali Raja في كننور، الذي أصبحت معارضته غير فعالة بسبب وقوع بلاده داخل نطاق النفوذ البرتغالي. وأخيرا يمكن القول بإن مابيلا كانوا خاضعين بالأساس لحكام كاليكوت، الذين لم يكونوا على قدر المسئولية؛ فقد أنفقوا الأموال على أهوائهم ونزواتهم، كما أنهم تحكموا في قوة الجنود الناير، الذين كانوا يستطيعون إحداث تغييرا كبيرا في هذا الصراع، لو أحسن الزامورين توجيههم بالتحالف مع المسلمين ضد البرتغاليين بدلا من توجهه إلى إبرام معاهدات صداقة معهم [١]. وفي هذا السياق يقول زين الدين المليباري "ولا يخفى أن مسلمي مليبار ليس لهم أمير ذو شوكة يحكم عليهم ويراعي مصالحهم، بل كلهم رعايا الكفرة، ومع هذا جاهدوهم وصرفوا في جهادهم الأموال على قدر طاقتهم ... حتى ضعف المسلمون بتعطيل تجارتهم، وإهلاك نفوسهم، وتخريب ديارهم وأموالهم، وهكذا مرارا حتى ازداد ضعفهم واشتد فقرهم وفاقتهم، وعجزوا ولم يعتن بأحوالهم سلاطين المسلمين وأمراؤهم" [٢]. في المقابل كانت لدى البرتغاليين شبكة من الحصون في كننور وكشي وكولم (كويلون)، وقد وفرت تلك القلاع ملاذا آمنا لسفنهم، كما أنهم من تلك القواعد قاموا باعتراض سفن تجار مابيلا، وحرموهم من الموارد المالية اللازمة لتلك الحرب الطويلة، ثم جاء استيلاء البرتغاليين على جوا ليعزز من تواجدهم العسكري والتجاري على الساحل [٣].

ويمكن أن نشير في هذا المقام كذلك إلى تغير الأوضاع في كننور بعد وفاة علي راجا؛ إذ لم يكن سلفه في الحكم مامالي مركار مستعدًا لاستعداء البرتغاليين، من خلال التحالف العلني مع المسلمين في كاليكوت. وإذا ما أضفنا إلى ذلك ما قام به تجار مركار في كشي من تقديم دعم صريح للبرتغاليين ضد مصالح تجار مابيلا كاليكوت

١ R. Miller, Op. cit., p. ٦٨.

٢تحفة المجاهدين، ص ٢٠٦.

٣ R. Miller, Op. cit., p. ٦٨.

يتضح لنا مدى التفرق والتشرذم الذي كان عليه مسلمو ساحل مليبار في مواجهة عدوهم البرتغالي [١].

مهما يكن من أمر، فإنه بحلول بدايات القرن ١٠هـــــ/١٦م ظهرت على الساحل قيادة استطاعت أن توحد مسلمي مابيلا تحت رايتها، وأن تبدأ مرحلة جديدة وطويلة من الصراع مع البرتغاليين، تلك القيادة تمثلت في كونجالي مركار، الذين يسميهم البرتغاليون– من شدة ما عانوه منهم– بقراصنة مليبار. وقد كانت جماعات مركار في الأصل تشكل جزءا من مجتمع مابيلا المسلم في كشي، لكنهم أجبروا على ترك المدينة والانتقال إلى فنان– التي تدخل في نطاق مملكة زامورين كاليكوت– نتيجة للاضطهاد البرتغالي للمسلمين في كشي، خاصة بعد الصداقة القوية التي ربطت حاكم المدينة بالبرتغاليين، والتي كان من نتائجها السماح لهؤلاء الأوربيين ببناء حصن في المدينة. استقر إذا كونجالي مركار ومن معه في فنان، واستمروا من هناك في متابعة أنشطتهم التجارية من خلال الميناء الاستراتيجي لهذه المدينة. بيد أن الجرائم التي كان يرتكبها البرتغاليون ضد المسلمين أقنعت كونج علي وأخاه إبراهيم بالتوجه إلى الزامورين، وعرضوا عليه تقديم خدماتهم وسفنهم، والوقوف إلى جانبه في قتاله ضد البرتغاليين. لا شك أن هذا الأمر قد أثار غضب البرتغاليين؛ فقاموا عام ٩٣٠هـــــ/١٥٢٤م بمهاجمة فنان، التي تعد محطة وترسانة الزامورين البحرية وقاموا باقتحامها. ومن جانبه شن زامورين هجوما مضادا وساعده بطبيعة الحال مسلمو كشي. والواقع أن مركار كشي كانوا هم قادة مسلمي هذه المدينة، مثل جماعة كويا كاليكوت Koya of Calicut تحت حكم الزامورين. ولا أدل من ذلك على الطلب الذي تقدم به الزامورين لإسماعيل مركار– رئيس طائفة التجار– يطلب منه إصدار الأوامر لرجاله بعدم استيراد الأرز إلى كشي، بسبب تحالف حاكمها مع البرتغاليين. وفي الحقيقة كان البرتغاليون يعون أن رجال مركار أصبحوا بمثابة رأس الحربة في مقاومة مسلمي مابيلا على ساحل مليبار، لذلك فقد قام البرتغاليون– كما ذكر سابقا– بشن هجوم ٩٣٠هـــــ/١٥٢٤م بقيادة هنري منيزيس Henry Menezes ضد فنان وبنتالاياني كولم التي كانت تحت سيطرة كونجالي مركار [٢].

---

١ J. Mailaparambil, Op. cit., p. ٦٦.

٢ O.K. Nambiar, Op. cit., p.٩٨; K. Panikkar, Op. cit., p. ١٠٨; R. Miller, Op. cit., p. ٦٨–٦٩; Sanjay Subrahmanyam, “Dom Frei Aleixo de Meneses (١٥٥٩–١٦١٧) et l'échec des tentatives d'indigénisation du christianisme en Inde / Dom Frei Aleixo de Meneses (١٥٥٩–١٦١٧) and the Failure of Attempts to Indigenise Christianity in India”, in Archives de sciences sociales des religions, N. ١٠٣, ١٩٩٨, p. ٢٨.

وفي الواقع نجح كونجالي الأول [1] كثيرا في تحجيم دور البرتغاليين في منطقة ساحل مليبار، بل ونجح أحيانا في إلحاق الأذى بسفنهم وتجارتهم؛ من ذلك ما قام به قائده كوتي علي Kutti Ali – الذي يعد من أذكى وأقوى القادة البحريين لدى كونجالي- من بث الرعب بين القادة والجنود والبحارة البرتغاليين، وإلحاق كثيرا من الأضرار بالتجارة البرتغالية؛ فعلى مدار عامين كاملين استطاع أن يقطع عمليا كل الروابط والاتصالات بين كشي وجوا على الساحل الغربي. كما أن التكتيكات والخطط الحربية لبحارة وجنود مركار كانت فريدة من نوعها؛ فإنهم كانوا يترقبون "بهدوء وصمت"- بالقرب من الشاطئ- وصول سفن العدو، بينما كان الرجال المتمركزون على قمم التلال يصدرون إشارات بمجرد رؤيتهم للسفن البرتغالية، ثم يندفع محاربوهم بقواربهم الصغيرة- التي تسمى war-paros- "مثل كلاب الصيد"، ويهاجمون تلك السفن، ويقتلون عددا كبيرا من أفرادها. وفي حالة عدم تمكنهم من تحقيق هدفهم فإنهم كانوا يتراجعون بسرعة كبيرة إلى المياه الضحلة. كما أن تلك القوة البحرية لمركار نجحت أحيانا في توفير الحماية للسفن التجارية الإسلامية في أعالي البحار؛ ففي عام ٩٢٩هـــــ/١٥٢٣م نجح كوتي علي في مساعدة مائتي سفينة على القدوم بأمان إلى ميناء كاليكوت. كما أنه بفضل تلك القوة البحرية خرجت ثمان سفن محملة بالفلفل إلى البحر الأحمر، رفقة حماية مكونة من أربعين سفينة. كما كان بإمكان القائد البحري كوتي علي وشقيقه الأصغر القيام بذلك أمام أعين البرتغاليين وأسطولهم الذي كان يمخر عباب المحيط. وقد مكنت هذه الحماية القوية لمركار كاليكوت من مواصلة تجارتها- لبعض الوقت- مع مدن وسواحل غرب آسيا، وهو أمر كان يصعب على أي قوة تجارية أخرى القيام به، في ظل أعمال القرصنة التي كانت تمارسها السفن البرتغالية ضد السفن التجارية الإسلامية [2].

وفي ذلك الوقت، امتد الصراع ما بين مسلمي مابيلا والبرتغاليين إلى "بحر سيلان". فقد كان هؤلاء المسلمون دائما ما يبحثون عن الدخول في تحالفات مع القوى المجاورة لمهاجمة البرتغاليين؛ وقد واتتهم الفرصة خلال عام ٩٣٣هـــــ/١٥٢٧م، حيث أبرموا اتفاقا مع حاكم كايالباتنام Kayalpatnam. وقد كان القائد البرتغالي جواو

١من المرجح أن يكون كوتي أحمد هو كونجالي الأول قائد الأسطول البحري للزامورين، وأن هذا كان لقبا له، وربما يكون قد عاش حتى عام ٩٤٥هـــــ/١٥٣٨م. وفي الواقع، هناك ثلاثة آخرون قام الزامورين بمنحهم لقب كونجالي على التوالي. كما أن هناك إشارات إلى أن ثالثهم وهو باتو مركار كان قد تولى المنصب بعد تدمير حصن شاليات عام ٩٧٩هـــــ/١٥٧١م، وخلفه كونجالي الرابع عام ١٠٠٣هـــــ/١٥٩٥م. أنظر: O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٨٤

٢ O. Nambiar, Op. cit., p. ٩٩; O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٨٤-٨٥.

فلوريس هو أول ضحايا هذا الاتفاق؛ فقد تم قتله قبالة كيلاكاراي Kilakkarai في نفس هذا العام، وكان فلوريس هذا قد أرسل إلى الساحل الجنوبي للهند لحماية السفن البرتغالية التي تحمل الأرز ما بين كوروманديل ومليبار. ويبدو أن سبب هذا التحالف يعود إلى قيام هذا القائد البرتغالي بعقد اتفاقية مع حاكم كيلاكاراي، فأدى هذا الأمر إلى غضب وحقد حاكم كايالباتنام عليه، وقام على الفور بطلب المساعدة من مسلمي مابيلا في كاليكوت [١].

والواقع أن السبب الذي دفع مابيلا كاليكوت- أو بالأحرى مركار بصفتهم الفئة الأبرز بين مسلمي مابيلا آنذاك- على توجيه أنظارهم تجاه سيلان يعود إلى المعاناة التي كان يجدها التجار المسلمون في تلك الجزيرة على أيدي البرتغاليين، تماما كما هو الحال بالنسبة لمسلمي مليبار. من ناحية أخرى، فإن الزامورين حاول من خلال قائده كونجالي تدمير النفوذ البرتغالي في سيلان، والتدخل كذلك في سياسة حكم الجزيرة، وذلك بمحاولة إزاحة الحاكم القائم بهوينكا باهو Bhuwenka Bahu، وتنصيب أخيه مايدونا Maydunna بدلا منه، نظرا للعلاقات الطيبة التي جمعت بينهما، واتفاقهما في مناصبة البرتغاليين العداء [٢]. مهما يكن من أمر، فقد استمرت هذه الاشتباكات البحرية بين البرتغاليين وقادة كونجالي في سيلان حتى عام ٩٤٥هـــــ/١٥٣٨، بيد أن النهاية كانت مأساوية بالنسبة لأسطول مليبار- وكان تحت قيادة باتشي مركار وكونجالي مركار وعلي إبراهيم مركار- الذي التقى بالأسطول البرتغالي بقيادة مارتين ألفونسو دي سوزا في فيدولاي Vidulai، وعندما انتهت المعركة كانت المحصلة ٨٠٠ مسلم قتيل، بل وسقط الأسطول الإسلامي بغنائمه "التي لا يمكن عدها" في أيدي البرتغاليين؛ بما في ذلك ٤٠٠ مدفع و٢٠٠٠ بندقية والعديد من الأسلحة الأخرى، إلى جانب ٢٢ سفينة. حتى مظلة ولاية زامورين، التي أرسلت كهدية إلى مايدونا، وصلت إلى أيدي عدو الزامورين، وهو راجا كشي، الذي منح تلك المظلة كهدية من قبل القائد البرتغالي دي سوزا [٣]. مثل النصر في موقعة فيدولاي أهمية قصوى بالنسبة للبرتغاليين، وقد ظهر هذا الأمر جليا من خلال الاحتفالات التي أقاموها، كما أن هذا النصر "تم الإشادة به في جميع أنحاء أوروبا". وفي المقابل أدت تلك الهزيمة إلى تلاشي مصالح

١ Jorge Manuel Flores, “Cael Velho, Calepatanão and Punicale, the Portuguese and the Tambraparni Ports in the Sixteenth Century”, in Bulletin de l'Ecole française d'Extrême-Orient, Tome ٨٢, ١٩٩٥, p. ١٩.

٢ O. Nambiar, Op. cit., p. ٩٨-١٠٠.

٣ O. Nambiar, Op. cit., p. ١٢٢; O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٨٥; Sanjay Subrahmanyam, The Portuguese Empire in Asia, p. ٩٩.

الزامورين في سيلان، بحيث إنه لم يرسل أي رحلات استكشافية أخرى إلى تلك الجزيرة [١].

مما لا شك فيه أن الأمور كانت تسير من سيء إلى أسوء بالنسبة للزامورين ومملكته، خاصة بعد فشل التحالف ما بين أسطول كاليكوت وأساطيل مصر المملوكية والكجرات- كما تم الإشارة إليه سابقا- وهو الأمر الذي جعل القوات المملوكية تنسحب من البحار الهندية. كما أن الاشتباكات البحرية المستمرة مع البرتغاليين لمدة خمسة عشر عاما متواصلا أنهكت أسطول الزامورين وأدت إلى استنزاف موارده، فضلا عن أن تجارته أخذت في التلاشي [٢]. ومما زاد الأمر سوء هو نجاح البرتغاليين في الاستيلاء على شاليات- التي تعد جزءا من أملاك الزامورين- وتأسيس حصن بها عام ٩٣٨هـــــــ/١٥٣٢م، فكان ذلك بمثابة ضربة قاصمة لتجارة ساحل مليبار وقطع الاتصال بين مدنه، وبسبب موقع شاليات الاستراتيجي أصبحت من الآن فصاعدا كالشوكة في حلق الزامورين، "فإنها ممر السامري (الزامورين) وعساكره وسائر المسافرين، وبه يتعطل سفر بر العرب من كاليكوت" [٣]. فاضطر ملك كاليكوت إزاء هذا الأمر إلى البحث- عدة مرات- عن عقد معاهدة سلام مع القائد والنائب عن الملك البرتغالي في ممتلكات الهند جارسيا دي نورونها، وقد تم له ما أراد في عام ٩٤٦هـــــــ/١٥٤٠م بعدما قام بإرسال تشيناكوتي علي Chinnakutty Ali- وهو أحد أقارب كونجالي الثاني- إلى جوا لنقل مقترحات الملك إلى جارسيا، الذي استقبل المبعوث "بود شديد"، ثم تم التوقيع على المعاهدة في فنان. ووفقا لبنود هذه المعاهدة كان لزاما على الزامورين إلا يبيع الفلفل والزنجبيل في كاليكوت إلا للبرتغاليين فقط. كما أنه كان إلزاميا على السفن الإسلامية المبحرة في مياه المحيط أن تتزود بداية بإذن وترخيص من البرتغاليين للقيام برحلاتها. ورغم الخسارة التي لحقت بحاكم كاليكوت من الناحية السياسية، إلا أنه بموجب هذه الاتفاقية استفاد الزامورين من دخل ثابت من التجارة مع البرتغاليين دون الدخول في أي مخاطر، وهو ما أدى إلى إحياء تجارة كاليكوت [٤].

١ O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٨٦.

٢ O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٨٦.

٣زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٧١-٢٧٢.

٤ K. Panikkar, Op. cit., p. ١١٤-١٢٠.

بيد أن زعيم مركار ومابيلا المسلم، وقائد أسطول الزامورين، كونجالي الثاني رفض الاعتراف "بنظام التراخيص البرتغالية"، وتعهد بحماية سفن مليبار التجارية المبحرة في المحيط، كما أنه لم يكتف بذلك وإنما بدأ في مهاجمة السفن البرتغالية. وقد ألحقت "حرب العصابات" تلك التي اتبعها كونجالي الثاني ضررا كبيرا بالتجارة البرتغالية، خاصة بعد أن تحصل هذا القائد المسلم على دعم قائد أسطول كننور. كل ذلك أجبر البرتغاليين على تكوين أسطول حربي ضخم يرافق سفنهم التجارية أثناء إبحارها في المحيط الهندي [١]. من ناحية أخرى، فإن جنود مركار بأسطولهم الصغير نجحوا في منع السفن البرتغالية من الرسو بسواحل مدن مليبار للحصول على التوابل، بل إنهم نجحوا كذلك في إيقاف وصول شحنات الفلفل من المناطق الداخلية التي كانت تقوم بزراعته، ومنع وصولها للمدن الهندية التي كانت تخضع للنفوذ البرتغالي، وهو الأمر الذي سبب كثيرا من الخسائر بالنسبة لهم. إزاء هذا الأمر وللوصول إلى حل يكفل لهم الحصول على تلك السلعة المهمة، اضطر الملك البرتغالي نفسه ونائب الملك في جوا للتدخل والبحث عن مصدر آخر، وقد وجدوا ضالتهم في منطقة كانارا Kanara القريبة من جوا– مركز حكمهم– والبعيدة كذلك عن تهديد مركار [٢].

ومع أن البرتغاليين مع مرور الوقت أصبحت لديهم قوة بحرية ضخمة قوامها عشرون أسطولا، تحت قيادة سانتومايور، إلا أن أعمال القرصنة التي كانت تشنها سفن كونجالي الثاني ضد البرتغاليين ونهب سفنهم لم تتوقف، وهو الأمر الذي أثار غضب نائب الملك دوم لويز دي أتيد Lu□z de Ata□de، الذي أرسل القائد مارتينو ألفونسو عام ٩٧٦هـــــــ/١٥٦٩م بأسطول كبير مكون من ست وثلاثين سفينة للقضاء على أسطول كاليكوت وإيقاف قرصنتهم. بيد أن هذه القوة الحربية أثبتت فشلها مرة أخرى، وواصل كونجالي شن هجماته المميتة ضد البرتغاليين وسفنهم [٣]. نتيجة لتلك الضربات المتلاحقة التي وجهها أسطول كاليكوت بقيادة القائد الإسلامي المحنك كونجالي مركار، ومع زيادة السخط والحنق لدى البرتغاليين على أوضاعهم المتردية، فقد قام الأسطول البرتغالي المكون من أربعين سفينة تحت قيادة دوم دينجو دي مينيزيس بهجوم دام على

---

١ K. Panikkar, Op. cit., p. ١٢٨; Pius Malekandathil, Op. cit., p. ٦٣-٦٦;

زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٨٩

٢ Sanjay Subrahmanyam, Dom Frei Aleixo de Meneses, p. ٢٩.

٣ K. Panikkar, Op. cit., p. ١٣١.

مدن مليبار الساحلية؛ فحرق ونهب وقتل سكان تلك المناطق بلا رحمة. وقد عانت مدن وموانئ بانداريني كولم وتيروكود Tirokode وفنان بشدة من تلك الهجمات [1].

بدأ البرتغاليون إذا يمارسون أشد أنواع الوحشية والقسوة والتعذيب مع سكان مليبار، خاصة في الأماكن التي كانوا يمتلكون فيها حصونا، وهو الأمر الذي أثار سخطا كبيرا بين السكان وجعلهم يتطلعون لأخذ ثأرهم؛ ففي كننور خرجت سيدة في الطرقات وهي تحمل جثة زوجها المقتول بيد البرتغاليين، فأدى ذلك إلى إثارة حفيظة السكان المسلمين والهندوس؛ فخرجوا باتجاه الحصن وقاموا بمحاصرته وكان ذلك عام ٩٧١هـ/١٥٦٤م. ولمعالجة الأمر قبل أن يتفاقم توجه باولو دي جاما بأسطول مسلح من جوا لتعزيز القوة البرتغالية في كننور. بيد أن دي جاما لما وصل إلى بهاتكال Bhatkal قام كونجالي الثاني بمهاجمة هذا الأسطول، وأجبر جاما على العودة مرة أخرى إلى جوا. تبع ذلك تعزيز برتغالي قوي آخر بأسطول تحت قيادة دوم ماسكارين الذي دخل بدوره في اشتباكات مع كونجالي، ودارت عليه الدوائر كما حدث مع سلفه. أسطول برتغالي ثالث تحت قيادة لويز دي ميلو تم إرساله لمواجهة كونجالي، بيد أن هذا القائد لما وصل إلى منجلور Mangalore أنشغل بشن غارات بحرية على تلك المدينة ونسي الهدف الذي جاء له، فانتهز كونجالي هذه الفرصة وسير إليه ١٣ سفينة تمكنت من الانتصار عليه، فاضطر دي ميلو للعودة بأسطوله إلى قاعدتهم بجوا، وهناك سجن بتهمة "التقصير في آداء واجبه". وهكذا مني البرتغاليون بخسائر عديدة، مما جعل وضعهم على الساحل الهندي في خطر [2].

وفي عام ٩٧٨هـ/١٥٧٠م ظهر اتحاد قوي مناهض للبرتغاليين، وكان هذا التحالف يضم الزامورين ومرتضى نظام شاه حاكم سلطنة أحمد نجار [3]، وعلي عادل شاه حاكم بيجابور، كما كان ملك اتشن Achen كذلك جزءًا من هذا التحالف. وبحسب الخطة التي تم وضعها قام عادل شاه في هذا العام بمحاصرة جوا، بينما توجه نظام شاه نحو شول، أما الزامورين فقد تكفل بالتوجه إلى شاليات [4]. وكمساعدة للسلطان نظام الملك في حصاره لشول، قام الزامورين بإرسال القائد البحري كوتي

---

١ K. Panikkar, Op. cit., p. ١٣٢.

٢ O. Nambiar, Op. cit., p. ١٥٠-١٥١; O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٨٩.

٣ سلطنة أحمد نجار أو سلالة نظام شاهي هي سلطنة هندية تقع في منطقة حيدر آباد الدكن، وقد تقلد نظام شاه أمور السلطنة فيها بين عامي ١٥٦٥-١٥٨٨م، وانتهت هذه السلطنة بدخول الجيش الهندي إليها وإعلانه حيدر آباد كولاية من سائر ولايات الدولة الهندية، وذلك بعد قرار التقسيم. أنظر: زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٩٢.

٤ O. Nambiar, Op. cit., p. ١٥٢; K. Panikkar, Op. cit., p. ١٣٢.

بوكير Kuttipokker بأسطول مكون من ٢١ سفينة و١٠٠٠ جندي مسلحين بالبنادق. ورغم وجود الأسطول البرتغالي القوي أمام سواحل المدينة، إلا أن كوتي بوكير لم يهب الموقف، وتمكن من إنزال جنوده وأسلحته بالمدينة ليلا. وقد ظل هذا القائد يقاتل ببسالة لمدة عشرين يوما، لكنه اضطر في نهاية الأمر للانسحاب، بعد أن كبد البرتغاليين خسائر فادحة. كما أنه قام في وقت لاحق بمهاجمة الحصن البرتغالي في منجلور. بيد أنه أثناء رحلة عودته من كننور باتجاه كاليكوت واجه أسطولا برتغاليا ضخما– مكونا من ٥٠ سفينة– تحت قيادة ديو دي مينيزيس، وبعد معركة شرسة سقط كوتي بوكير قتيلا، واضطر أسطول الزامورين للفرار [١].

انتصار شاليات ونتائجه:

لقد كان حصار شاليات بواسطة الزامورين بمثابة حرب شاملة قام بها مسلمو مابيلا ضد البرتغاليين؛ فقد انتشرت الدعوة للجهاد من قبل القادة الدينيين في كل ربوع مليبار، ويعد كتاب زين الدين المليباري "تحفة المجاهدين" واحدا من الكتابات التي ألفت لهذا الغرض. وكانت استجابة المسلمين لتلك الدعوات كبيرة جدا، فقدم الناس من كل مكان؛ فيذكر زين الدين أن أهل فنان وبرونور وتانور وبربورا انضموا للجيش بأعداد كبيرة، ووصلوا إلى شاليات في ليلة ٢٥ من صفر عام ٩٧٩هـــــ/١٥٧١م، وانضموا إلى أهل شاليات الذين كانوا على أهبة الاستعداد للقتال. وكان أن بدأت المعركة في صباح اليوم التالي بين المسلمين والبرتغاليين؛ فقام المسلمون بداية بإحراق البيوت الواقعة خارج الحصن والكنائس، ودمروا التحصينات المبنية من الطين. وخلال تلك الأعمال استشهد عدد قليل من جانب المسلمين، بينما قتل عدد كبير من البرتغاليين. إزاء هذا الوضع المتأزم، ما كان من الجنود البرتغاليين إلا أن لجأوا إلى الحصن القوي المبني من الأحجار للاحتماء به، فقام مسلمو مابيلا والجنود الناير بضرب حصار شديد على القلعة، ثم قاموا بحفر الخنادق حولها [٢].

وقد عانى الجنود البرتغاليون الأمرين خلال هذا الحصار، حتى أنهم اضطروا إلى أكل جيف الكلاب وجثث موتاهم. وخلال هذه الفترة كان رجال الدين من جميع الطوائف– مسلمين وهندوس وبراهمة– يتلون كتبهم المقدسة ويبتهلون لتحقيق النصر. أما الزامورين فكان يشجع جنوده على تشديد الحصار ويأتي إليهم يوميا لزيارتهم،

---

١ O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٩١.

٢زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٩٣-٢٩٤.

ولتفقد الخنادق. ومما زاد الأمر سوءا على البرتغاليين المحاصرين هو قيام المهاجمين بقطع الصلة نهائيا بين كننور وكشي من ناحية وشاليات من ناحية أخرى، وهو الأمر الذي حرم البرتغاليين من استقبال أي إمدادات أو نجدة لمساعدتهم على مواصلة المقاومة. إزاء هذا الوضع السيء اضطر البرتغاليون لمراسلة الزامورين من أجل طلب الصلح، واعدين إياه بمنحه عددا من المدافع الكبيرة المحفوظة في الحصن، وتعويضه عن النفقات التي تكبدها خلال هذه الحرب، لكن الزامورين رفض الصلح وأصر على مواصلة حصاره. وعندما أصبح الوضع خطيرا، عرضوا عليه تسليم الحصن بكل ما كان يحتويه من "الحوائج والمدافع"، فوافق الزامورين على ذلك، وقام بتوفير ممرا آمنا للجنود البرتغاليين للخروج، وكان ذلك يوم الإثنين ١٦ جمادى الآخر ٩٧٩هـ/١٥٧١م. ثم بعد دخول الزامورين للمدينة "أخذ ما بالقلعة حجرا حجرا وجعل موضعها كالصحراء". ثم تم تكليف مسلمي مابيلا بإعادة بناء الجامع القديم، الذي كان البرتغاليون قد قاموا بتدميره بعد استيلائهم على المدينة [١].

وهكذا وبعد فترة جهاد استمرت لأكثر من أربعين عاما تحقق لمسلمي مابيلا وللزامورين ما أرادوا والحقوا بالبرتغاليين هزيمة قاسية، كانت نتائجها مؤثرة؛ إذ إن هزيمة شاليات أنهت تماما على آمال البرتغاليين في تشييد مملكة على ساحل مليبار. كما أن هذا الانتصار أتى بلا شك تتويجا للجهود المشتركة والتصميم الراسخ من قبل مسلمي مابيلا وهندوس النابر من أجل تخليص بلادهم من خطر هؤلاء الغزاة [٢].

مهما يكن من أمر، بالرغم من هذا النجاح الكبير الذي حققه الزامورين ومسلمو مابيلا في تلك المعركة على البرتغاليين الذين يفوقونهم عدة وعتادا، إلا أن ذلك لا يمكن أن يخفي التأثيرات الكارثية التي أحدثها وصول البرتغاليين لسواحل مليبار، بصفة خاصة على المستوى الاقتصادي؛ فقد تعرض اقتصاد زامورين ومسلمي مابيلا لتدهور كبير بسبب فقدهم للتجارة المربحة التي كانت سببا فيما وصلوا إليه من رخاء وازدهار خلال القرون السابقة، بالإضافة إلى التكلفة الباهظة للحروب التي خاضوها ضد البرتغاليين. وإذا كان حكام الزامورين لديهم القدرة على تحمل تلك المصاعب والأزمات "بفضل الثراء الذي كانوا عليه"، فإن الأمر كان شديدا على مابيلا، "الذين وصلوا إلى حالة سيئة من الفقر المدقع"، بسبب فقدهم لنشاطهم التجاري، الذي كان

١زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٩٤-٢٩٥؛ William Logan, Op. cit., p. ٣٣٣

٢ O. p. Salahudheen, Op. cit., p. ٩٣.

المصدر الرئيس لمعيشتهم [١]. وعلى هذا فإنه يمكننا القول إن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ووصول فاسكو دي جاما إلى الساحل الهندي يعد حدثا كارثيا ألم بمسلمي مابيلا، الذين دخلوا في صراع مرير مع هؤلاء الأوربيين من أجل فرض السيادة في مياه المحيط الهندي، "ولسوء الحظ فقد خرج مابيلا مهزوما، ولم يستردوا الثروة والمجد الذي كانوا عليه من قبل" [٢].

جدير بالذكر، أن وصول البرتغاليين للساحل الهندي، ونجاحهم في إقامة العديد من المستعمرات في مدنه، أدى إلى زعزعة التوازن العرقي والديني الذي كان متجها نحو تحقيق انسجام مجتمعي في الإقليم، على الرغم من التفاوتات الشديدة في الخصائص الدينية والاجتماعية ما بين المسلمين والهندوس. كما أن الأمور بدأت تأخذ منحنى آخر بوصول المبشرين الكاثوليك إلى بلاد الهند خلال القرن ١٠هـ/١٦م؛ فتشير المصادر إلى أنه تم تحويل الآلاف من الطبقات الدنيا إلى المسيحية، كما أن العديد من الرجال والنساء المسلمين قد تحولوا بالقوة إلى المسيحية. وفي المجمل، فقد كان ظهور القوى الأوربية في المنطقة –بداية من البرتغاليين– مدعاة لإفساد المشهد المجتمعي، ونشأة قطيعة وحقد بين الطائفتين المسلمة والهندوسية. وكانت النتيجة الحتمية لذلك هو اتجاه مسلمي مابيلا للثورة ضد تلك الأوضاع التي قللت من مكانتهم وهمشت دورهم. كما أنه نتيجة للمقاومة التي لاقاها البرتغاليون من مسلمي مابيلا كاليكوت، فإنهم أهملوا هذه المدينة، في حين أنهم عملوا على تطوير المدن الساحلية الأخرى– التي خضعت لنفوذهم– مثل كشي وكننور وكولم، واتخذت الحكومة البرتغالية خطوات في تعليم أطفال سكان تلك المدن من خلال فتح المدارس منذ أوائل القرن ١٠هـ/١٦م، في حين لم يحصل المسلمون على فرصة التعليم المناسب، وهو الأمر الذي أدى إلى تأخرهم ثقافيا واجتماعيا عن بقية طوائف المجتمع [٣].

---

١ R. Miller, Op. cit., p. ٧٠-٧١.

٢ R. Miller, Op. cit., p. ٧٥.

٣ R. Miller, Mappila Muslims of Kerala, p. ٧٢-٧٧; R. Miller, Mappila Muslim Culture, p. ٣٠-٣١; K. Liji, Op. cit., p. ١٢٢-١٢٣; زين الدين المليباري، المصدر السابق، ص ٢٦٣

خاتمة البحث

من خلال هذا العرض لتاريخ مسلمي مابيلا على ساحل مليبار الهندي يمكن إيجاز أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة في النقاط التالية:

- كان موقع بلاد مليبار- بوصفها حجر الزاوية في تجارة المحيط الهندي وكونها مستودعا ومركزا لبضائع الشرق وفي مقدمتها التوابل- عاملا رئيسا وحاسما في المكانة البارزة التي احتلتها في عالم العصور الوسطى، ومن ثم أصبحت وجهة مفضلة لجميع التجار القادمين من شتى البقاع والأماكن.
- وفقا للعديد من الأدلة فإن وصول الإسلام إلى ساحل مليبار كان بعد وقت قصير من ظهور الدعوة الإسلامية بمكة، بل إن هناك بعض الروايات التي تؤكد على قيام أول حاكم مسلم للساحل- ويدعى السامري- بالارتحال إلى شبه الجزيرة العربية ومقابلة النبي ﷺ. كما أن هذه العلاقات والاتصالات ما بين المسلمين وسكان ساحل مليبار تشكلت وتأطرت من خلال التجارة، وكان الود والصداقة هو أساس تلك العلاقة وليس العداء السياسي.
- ارتبط ظهور مجتمع مابيلا بالرحلات الدائمة التي كان يقوم بها التجار العرب المسلمون نحو ساحل مليبار؛ فمكوث هؤلاء التجار لفترات طويلة في تلك المنطقة أوجد اندماجا بينهم وبين السكان الهنود المحليين، وازدادت أواصر تلك العلاقة بروابط الزواج والمصاهرة مع النساء المحليات الوثنيات، وهو ما مهد لظهور "جيل المولدين الجديد" الذي سمي بـــــ "مابيلا". وقد أخذت جماعة مابيلا تنمو رويدا رويدا، حتى أصبح أفرادها منشرين في غالبية مدن هذا الساحل، بحيث إنه في كل بلاد الهند لم توجد منطقة ينتشر فيها السكان المسلمون كما كان الحال في مليبار.
- ساهم زامورين كاليكوت مساهمة فاعلة في نشر الإسلام على ساحل مليبار؛ وذلك من خلال حسن المعاملة والرعاية التي منحوها للتجار المسلمين الوافدين إلى بلادهم، بل إنهم لعبوا دورا مميزا في زيادة عدد سكان مابيلا، وذلك من خلال إلزام كل أسرة من أسر الصيادين الوثنيين في مملكتهم بتحويل أحد أعضاء الأسرة إلى الإسلام، وتنشئته على تعاليم هذا الدين. وإن كان للزامورين أهداف اقتصادية وتجارية من وراء هذا الأمر، فإن المحصلة

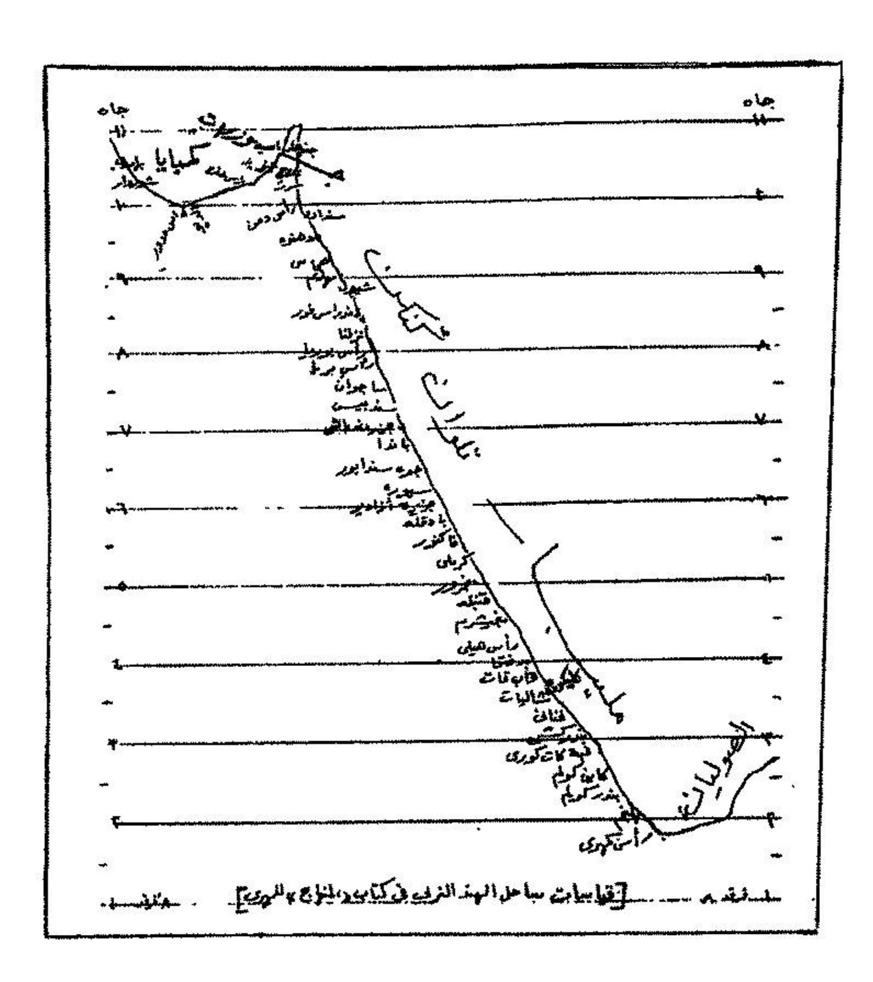
النهائية كانت تصب في مصلحة مجتمع مابيلا، الذي شهد نهضة غير مسبوقة في عهد هؤلاء الحكام.

- رغم أن مسلمي مابيلا كانوا يحكمون من قبل ملوك وسلاطين وثنيين، إلا أنهم لم يتعرضوا لأي ظلم أو اضطهاد من قبل هؤلاء الحكام، وإنما منحوا كثيرا من الحريات في ممارسة حياتهم الاجتماعية وشعائرهم الدينية. كما أن العلاقات التي ربطت المسلمين ببقية فئات المجتمع الهندوسي كانت علاقات طيبة يسودها المشاعر الودية وكثير من روح التسامح. وفي ظل هذا العدل الذي بسطه الحكام تمكن مسلمو مابيلا من الوصول إلى أعلى درجات القوة والنفوذ، وهو الأمر الذي جعل المؤرخ البرتغالي بربوزا يقول إنه لولا وصول البرتغاليين للهند لتمكن هؤلاء المسلمون من بسط نفوذهم على جميع هذه البلاد.
- مثلت التجارة المهنة الرئيسة لمعظم سكان مابيلا، واستطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على التجارة المحلية في مليبار. ومع وصول البرتغاليين، بدأت تتبدل موازين القوى التجارية في المنطقة، واضطر التجار العرب والفرس المسلمون- تحت ضغط من البرتغاليين وأساطيلهم- إلى الانسحاب من شبكة التجارة في منطقة المحيط، وهو الأمر الذي مكن تجار مليبار المسلمين من ملأ هذا الفراغ، وتحولوا من كونهم "تجارا ساحلين محليين" إلى "تجار إقليميين" يجوبون بسفنهم معظم سواحل المحيط الهندي.
- كانت لمسلمي مابيلا ثقافتهم الخاصة بهم، التي زاوجوا فيها ما بين الثقافة الإسلامية- بكل تشريعاتها ونظمها وأخلاقياتها- وبين الثقافة والتقاليد الهندية المحلية، فأنتجوا فكرا وثقافة جديدة منحتهم طابعا خاصا ومميزا في المجتمع الهندي. وإذا كانت اللغة هي وعاء الثقافة فإن مسلمي مابيلا- حرصا منهم على الاحتفاظ بالنطق الصحيح للكلمات العربية والمصطلحات الشرعية بدون تحريف-نجحوا في أن يزاوجوا ما بين اللغة العربية- وهي لغة الآباء واللسان الذي تنزل به الشرع- وبين لغتهم الأم المالايالامية، فأوجدوا لهجة جديدة تسمى مالايالام مابيلا التي تتشابه حروفها مع حروف اللغة العربية.
- مثل وصول البرتغاليين لمنطقة الساحل الهندي تحديا كبيرا لمسلمي مابيلا، الذين انضموا إلى أخوتهم المسلمين من العرب والفرس فضلا عن زامورين

كاليكوت لمواجهة هذا الخطر، الذي كان يعد امتدادا أيديولوجيا للفكر الأوربي الهادف إلى القضاء على جموع المسلمين ثقافيا واقتصاديا وعسكريا، كجزء من حلقات الحروب الصليبية ما بين الشرق والغرب.

- وصول عائلة كونجالي مركار إلى كاليكوت وانضمامهم لقوة الزامورين أدت إلى وجود قيادة مسلمة قوية، استطاعت أن توحد تحت رايتها جميع مسلمي مابيلا، ومن ثم بدأت مرحلة جديدة وطويلة من الصراع مع البرتغاليين. وقد نجح هؤلاء القادة- من خلال قيادتهم لأسطول الزامرين- في إلحاق عدة هزائم بالأسطول البرتغالي وتكبيده كثيرا من الخسائر العسكرية والتجارية.
- ترتب على الانتصار الذي حققه الزامورين ومسلمو مابيلا على البرتغاليين في معركة شاليات نتائج مهمة ومؤثرة، فقد أتى هذا الانتصار تتويجا للجهود المشتركة ما بين مسلمي مابيلا وهندوس النابر من أجل تخليص بلادهم من خطر هذا المستعمر، بينما أنهت تلك الهزيمة تماما على آمال البرتغاليين في تشييد مملكة لهم على ساحل مليبار.

ملحق (١)



خريطة لأهم مدن ساحل مليبار

نقلا عن: حسن الشهابي، أحمد بن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، إصدار مركز الدراسات والوثائق، رأس الخيمة، ٢٠٠١م.

ملحق (٢)



أحد المساجد القديمة لمسلمي مابيلا

نقلا عن:

R. Miller, Mappila Muslims of Kerala, a Study in Islamic Trends.

مصادر ومراجع البحث

أولا: المصادر والمراجع العربية:

الإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م.

ارنولد (توماس)، الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، (تحقيق) حسن إبراهيم حسن (وآخرون)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١م.

ابن بطوطة (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي)، رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، (حققه وقدم له) عبد الهادي التازي، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ١٩٩٧م.

الزركلي (خير الدين)، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.

زين الدين المليباري (الشيخ أحمد زين الدين المعبري)، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، (قدم له وحققه) محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٩٨٥م.

عثمان (شوقي عبد القوي)، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٥١، يوليو ١٩٩٠م.

المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، شركة القدس للتصدير، القاهرة، ٢٠٠٩م.

النمر (عبد المنعم)، تاريخ الإسلام في الهند، دار العهد الجديد للطباعة، القاهرة، ١٩٥٩.

الهروي (نظام الدين أحمد بخشي)، المسلمون في الهند من الفتح العربي إلى الاستعمار البريطاني (الترجمة الكاملة لكتاب طبقات أكبري)، (ترجمه عن الفارسية) أحمد عبد القادر الشاذلي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.

ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧.

ثانيا: المصادر والمراجع الغربية:

Ahmad (S. Maqbool), “Arabic source Material on Indo-Arab Relations”, in Medieval India Quarterly, Publisher: Aligarh Muslim University, Vol III, N. ١ and ٢, ١٩٥٧.

Ansari (M. T.), Islam and Nationalism in India (South Indian Contexts), Routledge, London, ٢٠١٦.

Arnold (T. W.), The Preaching of Islam, Constable and Company LTD, London, ١٩١٣.

Aubin (Jean), “Albuquerque et les négociations de Cambaye”, in Etudes et documents sur l’histoire de l’océan Indien et des pays riverains à l’époque de la domination portugaise, Tom. I, Genève, ١٩٧١, p. ٣-٦٣.

Barbosa (Duarte), A Description of the coasts of East Africa and Malabar in the beginning of the sixteenth century, Notes and a preface by Baron Henry Stanley, London, ١٨٦٦.

Bouchon (Geneviève), Albuquerque, le lion des mers d’Asie, Paris, ١٩٩٢.

----------, “Les nouveaux venus: les Portugais” in Histoire de l’Inde moderne (١٤٨٠-١٩٥٠), sous la direction de Claude Markovits, Fayard, ١٩٩٤, p. ٧٣-٨٤.

----------, Vasco de Gama, Fayard, ١٩٩٧.

Boxer (C. R.), The Portuguese Seaborne Empire ١٤١٥-١٨٢٥, London, ١٩٦٩.

Buchanan (Francis), A journey from Madras through the countries Mysore, Canara and Malabar, Vol.١, London, ١٨٠٧.

Correa (Gaspar), The Three Voyages of Vasco da Gama and his Viceroyality, From the Lendas da India of Gaspar Correa, translated from the Portuguese with notes and an introduction by Hon. Henry Stanley, Printed for the Hakluyt Society, London, ١٨٦٩.

Disney (A. R.), A History of Portugal and the Portuguese Empire (From beginning to ١٨٠٧, Vol. ٢: The Portuguese Empire), Cambridge University Press, ٢٠٠٩.

Flores (Jorge Manuel), “Cael Velho, Calepatanão and Punicale, the Portuguese and the Tambraparni Ports in the Sixteenth Century”, in Bulletin de l'Ecole française d'Extrême-Orient, Tome ٨٢, ١٩٩٥, pp. ٩-٢٦.

Gleason (Henri Allan), Religious communities in the Indias, a regional survey, Published by Author, ١٩٤٦.

Kammerer (A.), La Mer Rouge, l’Abyssinie et l’Arabie depuis l’antiquité, IFAO, Le Caire, ١٩٢٨-١٩٥٢.

Liji (K.), “The Portuguese Cartaz System and the Maritime Trade of Kollam”, in IJRAR, Volume ١, Issue ٢, May ٢٠١٤, pp. ١١٩-١٢٣.

Logan (William), Malabar Manual, Vol. ١, Madras, ١٨٨٧.

Mailaparambil (J. B.), The Ali Rajas of Cannanore: status and identity at the interface of commercial and political expansion, ١٦٦٣-١٧٢٣, Retrieved from https://hdl.handle.net/١٨٨٧/١٢٤٨٨

Malekandathil (Pius), “Criminality and Legitimization in Seawaters: A Study on the Pirates of Malabar during the Age of European Commercial Expansion (١٥٠٠-١٨٠٠)”, in Fluxos and Riscos, N. ١, ٢٠١٠, pp. ٥٥-٧٤.

Miller (Roland Eric), Mappila Muslim Culture (How a Historic Muslim Community in India has blended Tradition and Modernity), Published by State University of New York Press, ٢٠١٥.

----------, Mappila Muslims of Kerala, a Study in Islamic Trends, Published in association with the Christian Institute for the Study of Religion and Society, Bangalore, ١٩٧٦.

Mohamed (K. M.), "Arab Relations with Malabar Coast from ٩th to ١٦th Centuries", in Proceeding of the Indian History Congress, Vol. ٦٠, (١٩٩٩), Published by: Indian History Congress, pp. ٢٢٦-٢٣٤.

Nambiar (O.K.), Portuguese Pirates and Indian Seamen, Bangalore, ١٩٥٥.

Newitt (Malyn), A History of Portuguese Overseas Expansion, ١٤٠٠-١٦٦٨, Routledge, London, ٢٠٠٥.

Padmanabha Menon (K. P.), History of Kerala, Edited by: T. K. Krishan Menon, Vol. ٢, Asian Educational Services, New Delhi, ٢٠١٣.

Panikkar (K.M.), A History of Kerala, ١٤٩٨-١٨٠١, Annamalai University, Annamalainagar, ١٩٦٠.

----------, Malabar and the Portuguese (Being a History of the Relations of the Portuguese with Malabar from ١٥٠٠ to ١٦٦٣), D. B. Taraporevala Sons and Co., Bombay, ١٩٢٩.

Panikkasseri (Velayudhan), Ibn Batuta Kanda India, Kottayam, ١٩٦٥.

Salahudheen (O. p.), Anti-European Struggle by the Mappilas of Malabar, ١٤٩٨-١٩٢١, Thesis submitted for the Award of the Degree of Doctor of Philosophy in History, Center of Advanced Study, Aligarh Muslim University, India, ٢٠٠٦.

Subrahmanyam (Sanjay), "Dom Frei Aleixo de Meneses (١٥٥٩-١٦١٧) et l'échec des tentatives d'indigénisation du christianisme en Inde / Dom Frei Aleixo de Meneses (١٥٥٩-١٦١٧) and the Failure of Attempts to Indigenise Christianity in India", in Archives de sciences sociales des religions, N. ١٠٣, ١٩٩٨, pp. ٢١-٤٢.

----------, The Portuguese Empire in Asia, ١٥٠٠-١٧٠٠, A Political and Economic History, John Wiley and Sons Ltd, West Sussex, ٢٠١٢.

Voyages de Vasco de Gama:" relations des expéditions de ١٤٩٧-١٤٩٩ et ١٥٠٢-١٥٠٣", Traduit et Annoté par Paul Teyssier et Paul Valentin, Présenté par Jean Aubin, éd. Chandeigne, Paris, ١٩٩٥.